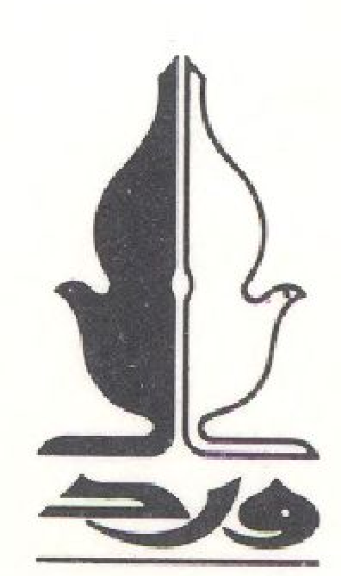
حيدر حيدر

حكايا النورس المهاجر

قصص





حكايا النورس المهاجر

* حيدر حيدر
* حكايا النورس المهاجر
* الطبعة الثالثة 1998
* الناشـــــــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* لوحـــــــة الغلاف : د. أحمد معلّا
* الإخـــــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـــــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص. ب: 4490
دار الحصاد: هاتف/فاكس 2126326

حيدر حيدر

حكايا النورس المهاجر

قصص

حكايا النورس المهاجر

«عندما يتيه النورس عن شطآنه ويخفق وحيداً في سماوات غريبة مجهولة، ينوح حنيناً موجعاً لوطنه الأصلي الذي فقده. نواح النورس حكايا حزينة يرويها بلغته الخاصة للفضاء والبشر والأرض ونفسه».

شجرة الكرز

*«إلى ذكرى أبي الذي غاب حزيناً وفقيراً
وتركني صغيراً أواجه الإعصار»*

شجرة الكرز

كنا صغاراً عندما غرس أبي شجرة الكرز في دارنا، والذي نذكره أنا وأخوتي وصِبية الجيران أننا كنا نحلم باليوم الذي تنمو فيه وتثمر، لنتسلق جذعها البني، ونقطف حبّاتها الملس العقيقية.

في الأيام الأولى من زراعتها هزيء الفلاحون من أبي وقالوا: ياللرجل الخيالي يزرع الكرز في أرض الكدّان! لكن الرجل العنيد لم يُصغِ لكلماتهم. حفر للشجرة حفرة اخترقت قشرة الكدّان القاسي، وهيأ لها أجود أنواع الأسمدة، ثم أكمل طقوس زراعتها بسفح جرة ماء حملتها أمي من عين وادينا المجاور، وحولها أقام سياجاً واقياً من شوك القتاد. بعدها تمتم كلمات دينية لم نكن نفهمها وإنما نحس بالرهبة لدى خروجها. قال أبي: هلموا ياأولاد. ارقصوا وابتهلوا. في أرض الكدّان زرعنا الكرز.

حول الشجرة تحلقنا، ورحنا نغنّي ونثب كأفراخ الأرانب في ساحة الدار. انتشى أبي معنا فأمسك بأيدينا وراح يرقص بلا وقار.

قال الصغير: في العيد القادم سنأكل حباتها الحمر.

وقال الثاني: يالطعم الكرز ماأعذبه.

وقلت: ستكون لنا كرزة سامقة كالعروس.

وبانتشاء زغردت أمي.

كان أبي واحداً من أولئك الريفيين المؤمنين، يرفع لله صلواته الخمس، ويصلي للأرض والمطر أيضاً. كان يكرز على حوافي الحاكورة الجرداء المطلة على واد صخري، عمرت سفوحه بالأشواك والنباتات البرية القصيرة، في يده مسبحة جعدة نحتها من نُوى شجرة دراق، يرنو إلى الشجرة بلهفة وأمل، ثم يشرد بنظرات وادعة راجية نحو السماء الزرقاء حيث يقطن الإله.

في غدواته وروحاته المسائية كان يحس بالأسى لمنظر شجرات التين المحيطة بالحاكورة تتفارع هرئة كسيحة، تحوم فوق تينها المتفسخ الزنابير الحمر أيام الصيف القائظة، فيقطع صلواته أحياناً بكلمات فيها رجاء: متى ينقرض التين العتيق وتعمر أرض الفلاح بالكرز الجديد!

خلال غيابه عن البيت كانت وصيته الوحيدة لأمي:

شجرة الكرز يا زينب.

وماكانت تلك العجوز الشَكِسة لتبخل أمسية ما بالماء أو ردّ البقرات والخراف السائبة، ولم تتَورع عن الصدام مع الجيران وأهالي الضيعة: رزق الناس داشر؟ العمى زرعها وسقاها بنور عينيه. من شجر الدني عندنا هالغرسة ماعاد فيكم لا دين ولاذمة. يأكلكم البلى والدود. جيران الشيطان!

وتروح تزعق فينا ونحن نلعب الدحل ونتلصص على عصافير التين: ياأولاد الفلا. رزقكم ساب وأنتم غافلون.

هكذا منذ الطفولة تعلمنا عشق هذه الغرسة، كما تعلمنا كيف نذود عنها. ومع الزمن صارت بالنسبة لنا تحدّياً لسكان الضيعة، وتوكيداً لقدرة ذلك الفلاح الذي اختار التربة الصفراء القاسية

مناخاً لشجرة جديدة تطلع في أرض البشر الراسخين. وبمرور الأيام وإمعاناً في التحدي صار لشجرة الكرز أعداء.

خُيل للذين زرعوا التين العتيق، وأشجار الصبّار وراء حواكيرهم أن شجرة الكرز الجديدة هزيمة لتقاليدهم العريقة، وأن تلك الأسرة الصغيرة التي اختارت أرضهم المطمئنة الراسخة، لتضع فيها نبتة جديدة ستهز التاريخ الطويل لحياتهم السَّلِسة الراكدة، لهذا صلّوا من أجل موتها. دَعوا سِراً وعَلناً أن ينحبس المطر وتجف الينابيع وأن يهجم القيظ. غير أن المطر انهمر، ونما الزرع في ذلك العام. وخابت الصلوات.

مع المطر اخضرَّت الكرزة ونمت. زاد تطلع أبي نحو السماء الزرقاء، وسقسقت النشوة في عروقه عبر ليالي الكفاح السري. ومعه ازددنا غبطة وشجاعة.

في القرية صار لنا أنصار. كانوا فتية يحبون الكرز، ويحبون الأشياء الجديدة في هذا العالم الصغير المحتقن. سقوا الشجرة وعشّبوها، ونافحوا عنها خلال ليالي القسوة. في الحواري والأزقة والحوانيت نشرنا معاً رايات النصر والتحدي. وغنينا: شجرة الكرز زغفت واخضرّت. صارت كقضيب الخيزران وتحدّت الكدّان الصلب.

وتمر الأمسيات بليلة عبقي، فنعود إلى الدار يزخُّ فينا مطر من الفرح. نرقص ونثمل وننشد: مبارك اسمك يا شجرة الضيعة. اكبري أيضاً. لتمتد جذورك في أعطاف الأرض بعيداً بعيداً ولتنتشر. ونحو أعنة السماء فلتسمق أذرعك المتشابكة المجيدة المحملة بالاخضرار.

من الخيمة الصيفية كان الفلاح النشوان يرمقنا وهو يرتل دعواته ويتمتم لربه البعيد صلوات الفوز للنبتة، ولأجيالها الصغيرة الطالعة. وتُسر أمي.

وكبرنا. فوق الأرض الصلبة فَرعت الشجرة كرمح، وصار لها فيء خضِل. وفي الظلّ الوارف تمطى الصحاب ورفرفوا بأجنحة أنهكها تعب السنين وأرق الليالي.

وقال الذين كابروا: يبدو أن الكرز نبت في تربة الكدّان!

كان الربيع على الأبواب، ربيعاً يشبه سطوح البحار الزرق. وراحت الأوراق الشبيهة بالزوارق الصغيرة تتهادى مشرعة في الفضاء الساكن، تخفق كالأهلة في ريح نشوى منداة. واستقامت الأغصان فارعة تتحدى بؤس المواسم، يسيل نسغها كثديي أم تنتظر وليدها البكر. كان الجذع البني شهياً كربلة ساق امرأة ملفوحة بالشمس والريح، بدا انتصابها بشارة وجدٍ للمتعبين، زفّتها الأرض.

في أعماق الكدّان ضربت شروشها بثقة. ومعها كنا نحسُّ أن حياتنا تنهض. وتدلت العناقيد الصغيرة حبات مغسولة غضة. الأماليد تدغدغ شرفة السطح، وفي الصباحات القروية المنعشة تروح عصافير بواكير الربيع تتساوق في عبّها الريَّان.

وفجر يوم أطل الربيع. في السفوح البعيدة خلف مرامي البصر، فاح الصعتر البري وفاق النرجس. ومن مكان ما قرب دارنا انتشرت رائحة الزيزفون الخضراء المسكرة. وعلى القرية حوّم صمت فَرِح، وصمت كئيب.

كانت عيون الأسرة معلقة على عناقيد الكرزة. وكان أبي مايني يصلي.

حلمنا بالكرز العقيقي الرخص ودمه الزاخر. تذكرنا ليالي الانتظار وحكايا أمي الشتائية عن الغول الحامل أرض الكدّان في التربة، وكيف أن شجرتنا اخترقت ضلوعه. ونحو الشرق عبرت أغاني الصحاب حارة، حزينة، راجية.

بعد أشهر من الصمت والترقب الفرِح هرّت عناقيد الكرز الذابلة، تجعدت الأوراق وقال أخي: شجرة الكرز عقيم واأسفاه!

ردّ الأصغر: مازال للفرح وقت.

قلت: زمن الفرح ولّى!

وتمتمت أمي: ابتلعها الغول.

انكسرت صلوات أبي ثم غارت. ماعاد يرنو نحو السماء، وهجَرنا الصحاب.

وذات شتاء حطّت بومة على تينة يابسة ونعبت: في أرض الكدّان لايثمر الكرز.

دمشق 1966

النهر الحليبي

النهر الحليبي

1

على ضفاف النهر قضى فيَّاض سنوات طوالاً. كان يُمضي لياليه في التجوال حول النهر أو في أزقة المدينة لايأوي إلى فراشه حتى الهزيع الأخير من الليل.

لم يكن لدى فيَّاض ساعة تحدد له الوقت سوى جسده الذي يتعب فيطلب الراحة، ويجوع فيحس برغبة الأكل، ويسترخي فيحس بضرورة الاستسلام للأحلام.

كان فراشه مصنوعاً من قشور الذُّرَة الجافة، حُشرت في كيس من الخيش، تمهدت مع الزمن حتى التصقت بالأرض كقطعة منها، أما مخدته فكانت بعض الخرق والعيدان التي جمعها عن شاطئ النهر.

كوَّمها فوق نتوء جذع شجرة وصنع منها انخفاسة لرأسه الكثيف الشعر. حول فراشه كانت تتدلى فروع شجرة الصفصاف

المستحي كذؤابات شعر امرأة تحميه من الرياح والصقيع وعيون البشر.

لم يكن في المدينة من هو أكثر طمأنينة من فيَّاض في عالمه الصغير هذا، الخيمة الطبيعية المشرفة على سطح النهر اللامع، وشجرة السرو السامقة المجاورة لكوخه الصغير، والناعورة النائحة على مدى الليالي، ثم هذه الغبطة في الاستقلال والمحايدة دون أن يسبب أيّما أذى للآخرين.

غير أن بشر المدينة لم يكونوا في مثل تلك المحايدة، فحتى أطفالهم كانوا يحصبون الكوخ وشجرة المستحي ويصرخون: الغزال المجنون. فيَّاض الحيوان خذ هذه الهدية! ويقذفون ببقايا أطعمة عفنة وحجارة وألواح من التوتياء، كان يطفو بعضها فوق صفحة النهر ثم لاتلبث أن تغور في الأعماق.

في سهرات الأيام الشتائية، عندما تشعر الحيوانات بالقشعريرة وتهفو للتلبد في مكان قصي دافئ، والدخول في أجناسها عبر الكهوف والأجمات تمارس الحب والرغبات الطبيعية، يبدأ البشر في مدينة فيَّاض بالتندر عن حكايته المؤسية: كيف رمته أم مجهولة، اشتهته في ليلة قارسة على تخوم الصحراء، وكيف مرت بجواره غزالة مع أطفالها حَنت عليه وأرضعته حتى نما، وعاش بين قطيع الغزلان كواحد منه لايعرف غير الشمس والريح والعَدْو عندما يدنو الخطر.

ثم يتحدثون عن طول ساقيه ونحولتهما. وكيف تجمعت المدينة بأسرها لمشاهدته عندما صاده الصيادون في الصحراء. كان الذي لفت انتباههم خيط الدم المتلوي على طول قدمه اليمنى وهو يعرج بين الجموع، مذهولاً خائفاً لايفهم شيئاً من هذا العالم الجديد.

وإذ تمر الأيام ويشفى فيَّاض من جرحه، يعلِّمه الصياد بعض

الكلمات، غير أن الحنين للصحراء والمدى والركض يتحرك فيه فيخرج في ليلة مقمرة رامحاً بساقيه نحو الشرق حتى يبلغ البراري القصيَّة. هناك تتلقاه جموع الغزلان بالفرح والأنس فتبدأ تلحس جسده وتداعبه فيغفو فيَّاض بطمأنينة وسلام في أحضان الغزلان كما لم يحدث في حياته.

وبعد أيام يحاصره الصيادون أيضاً ويحضرونه إلى المدينة. ربطوه بسلسلة فولاذية كحيوان متوحش، وأجرى له أحد الأطباء عملية لقدميه، ومنذ ذلك اليوم لم يعد فيَّاض يعدو إلى الصحارى البعيدة.

بذلك كانوا يتندرون في قارسات الليالي، ومع الزمن تحولت الحكاية إلى أسطورة شعبية ثم إلى قصيد زجلي غُنِّي على الربابة، وفيما بعد أُلِّف ديوان طويل عن الحكاية أُضيف إلى تغريبة بني هلال ومجراوية الزير سالم وقصة بدر التمام بنت ملك الجان.

2

كانت تلك الأسطورة الغريبة تُروى حول المواقد مع بقية الأساطير، ورجال المدينة مشدوهون تتوتر أحاسيسهم وتنصبُّ على شفة الراوي، وعندما كان ينتهي من أحد الفصول ويقول: وعمر السامعين يطول. يتثاءب الرجال. يطفئون نراجيلهم، ويُوقَظ النيام، ثم يبدأ الرحيل الناعس عبر الأزقة نحو بيوت مبنية من الطين، محكمة النوافذ. تزين حيطانها النضرة سجاجيد صغيرة وكتابات سحرية وتعاويذ قديمة.

لم يكن فيَّاض كما تصوره الرجال: ذلك الأبله المجنون الذي لايفقه غير الدوار والنوم والرنو الأبدي نحو الشرق. كان مفتاح المدينة وسرها المخبأ تحت عمامة الليل، يعرف أشياء كثيرة

لايمكن البوح بها، ويعتقد أن الزمن القادم سيروي أشياء لاحصر لها عن المدن المحاصَرة، وعن البشر الذين يعتقدون خطأ أنهم يعيشون.

لم يكن ينام قبل أن يمر على بيوت جميع الرجال بعد فلول السهرات، يسمع الشخير، والتأوهات، وجلبة الدواجن والحيوانات في الخمم والحظائر وهي تتناغى. تناجي أجناسها وتحيا.

عندما يتعب من الدوار في الأزقة الموحلة كان يعود الهوينى واضعاً يديه خلف ظهره وهو يترنح ويعرج بقدميه المعطلتين، وإذ يتوقف قليلاً رانياً نحو الشرق الكئيب يهز رأسه شوقاً وغمًّاً ويتابع حتى ضفاف النهر.

كان النهر يسحره، ساعات طويلة تمضي وهو مستند إلى الجسر يحدق في المياه المنسابة، وفي أذنيه لايبرح أنين الناعورة رثاء أزلياً لتلك القطرات المتهافتة نحو مساقط الموت.

يصحو فيَّاض من صوفيته فيسير على الضفة باتجاه الكوخ وئيد الخطا يحلم بالصحارى والغزلان ومدائن الحرية.

خلال حياته بين البشر لم يؤذِ أحداً. كانت لغة التفاهم بينه وبين الآخرين مفقودة، ومن خلال الحس العدائي له تعوَّد أن يكتفي بنفسه، يجمع الحشائش عن حوافي النهر ويأتي بها إلى كوخه ليغتذي منها عندما لايجد مايقوته ويضمد جراحه ببعضها الآخر، وكان يغنِّي.

مع الأيام ألفت المدينة صوته الشادي، ومن ثم تحولت الألفة إلى نسيان. وبقي فيَّاض صعلوك المدينة وكاتم أسرارها.

سَحَر ليلة من ليالي الربيع كان يسير على حافة النهر يقطف الأزهار البرية، ويجمعها باقات ليعلقها في سقف كوخه احتفالاً بعظمة أمه الطبيعة، وقعت عينه على طفل ممدد فوق بطنه، لفظه

النهر فأستلقي رأسه في الوحل بينما راحت المياه ترشق قدميه ثم تنحسر عنهما برفق.

ذُهل فياض. تسمَّر. سقطت منه باقة الزهور وانتثرت في الوحل. رفرف عينيه لايصدق، فوق سطح النهر طفل أبيض في لون صفحة القمر. مسجًّى فوق الضفة. عارٍ، وضيء كالشهب، وفيه، في مكان ما من مؤخرته الدامية ثمة خطأ غير مقبول. جَسَّه فياض. حركه ثم حمله فوق راحتيه إلى الكوخ. حفر له حفرة صغيرة قرب كوخه وواراه. ثم عاد فجمع له زهوراً جديدة فرشها فوق كتلة التراب.

يومذاك بكى فيَّاض دموعاً ساخنة، وسهر حتى الفجر قرب الحفرة، وعندما أشرقت الشمس تطلع إلى الشرق البعيد وراح يغني أغانيه الكئيبة، ولأول مرة أدرك: لماذا تئن الناعورة!

وتعاقبت الدهور والأجيال، الليل يولد من النهار، والنهار يولد من الليل وكلٌ في فلك يدور، وفياض يحيا ويغني ويشاهد، والمدينة تسهر لياليها على صوت الراوي، تستمع إلى صنوج الحرب تدق أبواب القيروان، وإلى سنابك الخيل تشارف مداخل سمرقند، فتمتلئ النفوس بالهيجان والغضب وتتوتر العضلات شوقاً إلى حرب بسوس جديدة، ويتحول العنف راية منشورة فوق تلال النفوس.

وعلى الضفاف تنقُّ ضفدعة يجيبها صوت ضفدع، يتماوج النهر بالنقيق وتزحف الهوام فوق مروج الفرح لتعانق بعضها وتحيا.

وفي مدينة الرجال ينتشر نبأ صغير، جنيَّة ترتدي ثوب غزالة برِّية تقطع المسافات تحت ضوء القمر حذرة مذعورة، ترضع فيَّاض وتنام معه تحت شجرة المستحي. ويُضاف النبأ إلى حكايا القوم. يصبح للأسطورة رهبة في النفوس ويقول البعض: النهر

مسكون! وذات ضحى يسمع فيَّاض أصواتاً وصرخات حادة تقترب منه.

يثب من فراشه ويراقب من كوى الشجرة. تقع عينه على شاب أسمر في صلابة الصخر يعدو مذعوراً نحو النهر، وخلفه رجال يعدون في أثره. يصرخ الفتى: لاأريد. لاأريد. فياض. فياض. ويقترب أكثر. يعبر الجسر ويلتف حول النهر والقوم يولولون: عد.. يا محمد.. ويزداد عدواً.. يصبح على الضفة الأخرى. يلمح في يده فأس حادة ترشح دماً. ويده الأخرى بين فخذيه الداميين تضغط. يعول القوم: الطبيب.. يا محمد.. فيزداد الفتى وحشية: عودوا أيها الكلاب.. لاأريد.. أنا أكرهكم. فياض. فيَّاضي الحبيب.. ويلتفت إلى الخلف ملوحاً بالفأس. ينتضي أحدهم سكيناً ويقترب منه. ويشهد فيَّاض المعركة. فأس وسكين وشابان في ميعة الصبا. تجيش النفس بالحسرة وينفجر الشيء الخبيء:

«أنا شدخ الأسترة. غلاف شفاف كدمعة العين أتوسد بين جرح فيَّاض وعويل النساء في أوردة الدم».

كالومض. وتشق الفأس رأساً مسروق الصبوات. تنغرس سكين في صدر هائج استيقظ، ويهوي الجسدان في النهر.

يُغمض فيَّاض عينيه ثم يرتمي فوق فراش القش منتحباً.

3

في صدر القوم تُطوى الحكاية، وفي نفس فيَّاض تظل ماثلة قرب شاهدة الطفل. غير أن الحكايا الغريبة تزيد إدراكه أكثر فأكثر لأنين الناعورة.

كان فيَّاض مع الزمن قد ألف أصوات الغربان في الأصائل. فلا يكاد الغروب يرمي أوشحته الرمادية حتى تبدأ مواكبها تفِد إلى

أشجار السرو والكينا والصفصاف، تحوم فاردة أجنحتها الدامسة. يتغلغل بعضها في عبّ الأشجار ويطير بعضها الآخر فوق النهر والجسر، يُفزع نعيبها الخفافيش الصغيرة وهي تتساوق فرادى في هلام الفضاء المبحر فوق سفح النهر، ثم لاتلبث أن تنزوي في جحورها تحت قنطرة الجسر.

مع بداية المساء يروح يرقبها وهي تتزاوج في ظلام الشجرة المنحنية فوقه. تنقر بعضها البعض، وتخفق أجنحتها واثبة من غصن إلى آخر حتى تختار المأوى الهادئ، فتلتف الأعناق ويتلامس الريش فتدفأ وتنام رغيدة.

خلال حياته على النهر حلم فيَّاض بيوم مشمس يسير تحته رجل وامرأة يتعاطيان الحب وينعمان كالطيور.

غير أن حلمه سافر نحو جزر منسية وراء البحار، ولم يعد.

ولم يكن الراوي يمل من رواية أساطيره الغريبة عن الحرب والجحافل، وبطولات الزناتي وأبي زيد الهلالي، حتى إذا توقف عند قطع رِجل «الخضرة» فرس دياب بن غانم وتوسّل النعاس السامرين وانطفأت النراجيل وقال المؤذن: حي على الصلاة، حي على الفلاح. التقى رجال هجرهم النعاس في أخريات الليل على باب الراوي يقرعون الباب: انهض وقل لنا ماذا حدث للخضرة!

يستيقظ الراوي مغلوباً ليقرأ لهم: «قال الراوي يا سادة ياكرام بأن «الخضرة» وعلى ظهرها دياب فارس بني هلال، جَمَزت السور بالثلاثة».

عندها يشعر الفرسان بطلاوة النوم، تتمدد الراحة في نفوسهم ويستمرئون الغطيط تحت أغطيتهم الوردية.

وتتفاقم الحوادث في مدينة فياض، تطوِّح امرأة عارية نفسها من مئذنة أحد الجوامع فوق مسلة ناتئة تقوم على الرصيف

المجاور للنهز، ويراها فيَّاض تهوي فتثقبها المسلة الحادة، تخترقها من بطنها لتخرج من أضلاع ظهرها فتعلق المرأة في الوسط، ويتدلى رأسها بينما تتأرجح ساقاها في الفضاء كطريدة راشها سهم. وتنوس رقية عُلِّقت في رقبتها نُقش عليها اسم فياض. في ساحة المدينة يشنق فتى وسيم نفسه على مرأى من البشر. ويصيب المدينة مخل. يهددها جراد جائع وتحتبس الأمطار. وفي الليالي الداكنة يقرأ شيخ معمم وقور الآيات ضارعاً للرب. وتستمر حكايا الراوي تُروى على دخان المجامر، وبين روائح البخور المقدس، ويوشح الليلَ أنينُ ناعورة قديمة تطحلب الزمن فوق إطارها عشباً صغيراً. تشجو وتدور ممتلئة بدموع النهر، وعلى الجسر يعبر المارة حكايا منسية كالريح وكالصدى.

إلى فراشه يأوي فياض، كسيراً، يبكي كطفل مفقود، يحدِّق خلال دموعه إلى قدميه المفصودتين، ويروح في غنائه النشيجي:

«لاتقترب من الغابة.

الصيّادون في كل مكان.

لاتأمن للريح

الريح رمح.

هوذا فيَّاض يموت من الحزن.

كذلك كان

كذلك سيكون

إلى نهاية الدهر».

تنغمس الحكايا الغريبة بمياه النهر. ممتزجة بالقطرات وفي أعماق التربة تتغلغل. ومع الزمن ينسدل وشاح فسيح في اتساع رقعة السماء فوق ذاكرة المدينة.

ويعلو صوت المؤذن داعياً لصلاة الظهيرة. فيُهرع القوم تحت وطأة السنين، يصنعون سداً من السجود لرد المحن عن المدينة بينما فيَّاض الوافد الغريب مايزال نائماً على الضفة. تزغرد أحلامه وينوح حنيناً لغزالاته البعيدات، ولبراري الشمس والواحات. لأصوات تدق سمعه كأنين القتلى وهي تصدي من أعماق الأرض.

4

وتتالى الانتحارات الجماعية، وهجرة الفتية، والحوادث الغريبة الشاذة. وفي الليالي يرى فيَّاض أشباحاً تتحرك بين أعشاب النهر وخلف جذوع الأشجار. كان بعضها يبدو عارياً، يصدر أصواتاً مذعورة، كأنما تُقتل أو تنتشي، وفي الفجر تتسرب الغربان من الأشجار محوّمة ناعبة بأصواتها الحادة، ترسم دوائر إهليليجية وتحط قرب الجسر وعلى الضفاف، ثم لاتلبث أن تخفق بأجنحتها الليلية وفي مناقيرها قطع حمراء متدلية تمضغها في الفضاء وتغيب.

يسطع القمر، فتغمر المسرة حنايا فيَّاض فيعرج على حوافي النهر يبكي ويغني للقمر الفضي المشعشع فوق الأراضي البكر وهو ينسكب فوق المنازل الطينية، وعلى صفحة النهر المتأود.

يرتفق حافة الجسر ثم يحدق في النهر. فيرى بقعاً بيضاء صغيرة يدفعها التيار. بدت له كحيوانات صغيرة من العلق الأبيض مقذوفة فوق السطح، اعتقد أنها بقايا جرفها التيار من فيضان النهر.

مع الأيام ازدادت مراقبته للنهر. لم تكن البقع تنقص أو تفيض وإنما كانت تتلاحم وتمتزج بالمياه حتى لونت النهر ببياض ناصع كالكفن.

لم يستطع فيَّاض تفسير هذا التحول في طبيعة النهر، سوى أنه صار متعته في الليالي المقمرة عندما تبدأ الأشعة تتكسر فوق ذلك السطح الحليبي المدهش.

كانت الأصوات تعود للصدور بعد أفول القمر على ضفاف الدرب الثلجي السابح في الظلمة، بينما المِحن ماتني تنهمر على القوم، والشيوخ الطيبون ماضون بالتذكير بالمعاصي، والعجائز يَنذرن للأولياء بناتهن، وتتكاثر حشود الغادين إلى الحج في الأعياد المباركة، وعلى جدران البيوت الصغيرة المتواضعة يُعلَّق اسم الله بأحرف كبيرة قرب السيوف والخناجر والسجاجيد الصغيرة.

في تلك الليالي يرتعش قلب حزين: «لو كان لي أن أفرش الضوء درباً إلى المقابر المسكونة. لو أني يراعة في ليل النفوس المظلمة. لو كان لي أن أبوح».

وتحدث هجرة جماعية من المدينة، فلا يبقى فيها غير الدواجن والقطط والكلاب والفئران. ويعود فيَّاض في أواخر إحدى الأمسيات بعد تجوالٍ أنهك جسده في الحواري والأزقة وبعد أن رحل القوم، منحدراً في المضيق الملتوي بين الأعشاب، يدندن كلمات غير مفهومة. يصل إلى مرجته، فيسمع أصواتاً قريبة وقهقهات فرحة ورشق مياه تتطاير وتصطخب، فيقترب أكثر حتى الحافة ويندهش.

قرون طويلة مضت عليه هنا وليس ثمة رائحة لامرأة. النهر الآن واحة من الأجساد الطرية الملساء تتضوّأ تحت نبع القمر. وفرك عينيه. الأحلام صارت مع الزمن أرض حياته، علّمته الصمت والحزن والغناء. كانت القوافل ماتني تفِد مدهوشة تركض في عيونها الغبطة، وعلى شفاهها ابتسامات الحياة والصبوة. تقفز في الهواء. ترمي ثيابها السميكة ثم تهوي في النهر.

نساء، آلاف النساء، ملايين الحمائم النضرة، شلالات ضياء تستحم في طقس النهر، في ذكورته. ترشف مياهه الناصعة، وتتراشق بقطرات الحليب، والنهر يتماوج حفلاً إغريقياً بطِراً. يصير عرس جنيات عاريات في معابد الوثنيين.

يطوي فيَّاض قدميه. ويجلس على أعشاب الضفة وهو لايصدّق عينيه: الحلم. الأسطورة. الدمعة المحتبسة في المؤق. الزمان الراسخ والمغلق.

«مواكب الغيم الأبيض في سماء بيضاء. القمر اللجين في الجسد اللجين. الليل رقصة سماح بلا غلالة. الزهور تتراقص. فيَّاض يقطف الزهور ويطوِّح بها إلى النهر. تصير الزهور عقوداً في أعناق الجنيات وتنهمر البسمات.

وفي مداره يرش القمر ضوءاً ويبسم. يبكي فيَّاض دمعاً أبيض كثوب الأعراس وتنطق الدمعة: الميلاد يا فيَّاض في الأطفال الذين يولدون. رائحتهم بنفسج بري، وصحارى تعتمر المدى، تحيا قرب الواحات بين الغزلان. ترضع الحليب الصافي، وتنام تحت شموس منوّرة.

يحس فيَّاض بنشوة الحرية تسبح في رأسه وتغمر أضلاع المدينة السجينة. تتسرب النشوة إلى قدميه فيصرخ: الحياة.. الولادة.. الرقص.. هو ذا الزمن الراكد ينفجر.

تلمع على جسده قطرات. يرفع رأسه نحو الأعلى فيتلقى القطرات بين كفيه وعلى وجهه. السماء تبكي: هيا...

ويرقص... تشفى القدمان. قدماه جناحا طائر ويشترك مع الموكب. تعقد الفتيات العاريات حوله حلقات. وتقول حورية: هذا لي. منذ الآن لي! ويصرخن: لنا.. منذ الآن لنا. ويتردد الصدى ممتزجاً مع الرقص والزغردات. وإلى النهر يثبن معه. يبلله ماء النهر فيغوص معمَّداً بالأعماق ثم يطفو بين الأجساد المرمرية،

طائراً فوق الحلم على سطح الأسطورة الصقيل الفضي.

يهطل المطر غزيراً فتتغلغل منه قطرات داخل الشجرة. ويصَّاعد صدى صوت الناعورة مندغماً بالمطر:

«أنا مرارة البشر

المنشورة فوق نهر الزمن.

أنيني حكاية أطفال ماتوا

وأمطاري توق جنيات مخبآت في مدائن الرجال.

كذلك كان،

كذلك سيكون،

حتى نهاية الدهر».

دمشق 1966

الشمس تشرق من الغرب

الشمس تشرق من الغرب

1

ثمانية شهور وأيام في غرفة ما، في حي مشبوه من هذه المدينة. المدينة ذات النصف مليون بشري، ومليون عين يطل منهم عقم ورغائب سرية.

مدينتهم الكبيرة، وجُحري الصغير فوق أرض واحدة، ومع هذا فالفاصل واضح، وهذا لايعني أننا لانتنفس الهواء نفسه ونمشي على الأرجل نفسها ونصافح بأيد فيها حرارة ولكن...

مع مرور الأيام ذات الإيقاع الواحد اعتدتُ هذه الغرفة، تآلفت معها ولم يشكل ذلك أي إدهاش لي، فالصمت والجدران المدهونة والمغسلة، وتلك الكتب المبعثرة كانت تسليتي الوحيدة خلال الأيام المتواصلة التي لاتثبت شيئاً.

كنت قد درتُ ولهثت خلال شهوري تلك في الشوارع وعبر الأماكن التي يدخلها البشر ويخرجون منها وكانت النتيجة واحدة.

المدينة ليست لي، وحتى الأشياء الصغيرة فيها محرمة وملوثة على نحو ما.

ومع الزمن اكتشفت ذلك الرعب المطارِد في مومس مبذولة قد تقول لي بازدراء: من أنت؟

لذا قررتُ العيش كجرذ أجرب بعيداً عن الوثائق العصرية، أحلم بأشياء كثيرة لاتُطال. تبقى وترسو في أعماقي كمشاريع لاشمس لها.

مع الوقت بدأت أفكر بمشروع ما يزيح كابوس المدينة ومللها علّه يعوضني هذه الهزيمة. قلت: لماذا لاتصبح موسيقياً أيها السيد؟

خرجت ذات يوم إلى المدينة. اشتريت كماناً ورحت أتدرب بلا معلم. ولم تكن هناك مبادئ أولية، ألا يبدأ العظماء من الصفر، من الرغبة!

جربتُ كسر القوالب وكل البدايات الكلاسيكية، محاولاً إثبات عبقريتي في إبداع موسيقى خاصة، لها صفتها الحضارية كي أتحرر من هذا البؤس الزماني الذي لايدركه مزيفو مدينتي الممتطون لحصان طروادة. كان المهم أن أجد نغماً ما أرتاح إليه في وحشتي الكئيبة.

عندما كنت ألمس أوتار الكمان، كنت أشعر بغبطة لاحدود لها. ورغم أنني لم أصادف النغمة التي أبحث عنها، لكني كنت أحسها وأشعر أن بمقدوري عزفها. كانت لها سمات مشحونة بالذكرى والرحيل، وكانت تشبه صوت المطر في ليل غريب، موحش، وربما هزيم الريح في غابات بعيدة، إنها تأتيني أحياناً كامرأة عارية تدوسها العجلات. كان اللحن في مكان ما، وكنت وحدي أعزف وأسمع في هذا العالم الصغير.

كيف تستطيع تحدّي الفجيعة؟

كان السؤال يغمر عالمي بالكآبة، ويشعرني في الوقت نفسه بالتمرد.

على ساحة فيها تلّات من الرمل تختلط مع التراب والحصى، كانت غرفتي تطلّ. وفي الأصيل كان الأطفال يفِدون إلى الساحة، آنها يحلو لي أحياناً أن أتملاهم من خلال الزجاج الوسخ، وهم يتراشقون ويصرخون ببراءة تتخطى زمن المدينة المتراكم فوق فرسان اسبارطة المنسجمين. وفي لحظات ماكنت أتخيل أن تلك النغمة تكمن بين فرحهم وبين الصهوة التي يمتطيها أولئك الفرسان الأغبياء.

أي حياد جدير بالتقدير كان بيننا؟

في غروب يوم كنت أعاني جاهداً لأعزف اللحن. شعرت به يتخللني. فيه بداءة، وفيه نداوة وكان يتوتر ويرخم. ومن ثم يتماوج كأضاميم البنفسج، ثم يدفُّ كصوت المطر في ليل صحراوي، وكالريح في غابات بعيدة وكامرأة تدوسها العجلات.

في اللحظة ذاتها خمدت أصوات الأطفال فجأة. توقفتُ واستدرت مطلاً من النافذة. كان الأطفال تحتها صامتين وأبصارهم معلقة على وجهي وبغتة انفجر أحدهم: انظروا إلى ذقنه!

وقال آخر: شعره كشعر المجانين؟

وفي جموعهم سرت نشوة من الذعر والاكتشاف المفاجئ. قفزوا في الهواء كدجاج داهمه ثعلب وراح صراخهم يسري في الساحة ويخترقني. عندما عادت لي نفسي مددت يدي إلى ذقني وشعر رأسي. الأطفال على حق لقد كان شعر ذقني طويلاً.

2

أولئك الأطفال الصغار أعطوني درساً اكتشفت فيه ربما تفاهتي، وربما عُتهي في إمكانية إنقاذ المسيح في لحظة الصلب

والعزلة الروحية، فسقطت على السرير الفوضوي أتنشق روائحه الرطبة، محدقاً في الكمان الممدد على الأرض كنورس سقط على ضفة بحيرة، نتفت الريح ريشاته البيضاء فعام فوق سطح المياه، مسافراً نحو لامكان.

هل عليّ أن أبدأ شيئاً جديداً لايكسره الأطفال؟

كانت يدي تحت ذقني، والقدمان تتأرجحان بين السرير وبين بلاطة ما من أرض الغرفة. حدقت في الجدار المقابل فلمحت لأول مرة بقعاً كامدة ذات أشكال توحي بالغرابة، بدت لي كلوحات من الفن السريالي.

وجوه وأرجل. أغصان ومكعبات. غيوم ورؤوس مشوَّهة. رؤى تستطيع أن تتخيل فيها كل شيء ولاشيء.

وداهمتني فكرة مفاجئة: لماذا لاتحاول أن تكون رساماً سريالياً.

كنت أدرك اللعبة التي تشبه شعاعاً يسقط في فجوة، وكان الإدراك حقيقياً ورائعاً، لكنه خائف.

في أعصابي تدفق شيء حار. الهياج والتغلب على السأم. أن تعيش في مناخات التحدي الفخمة.

لم تكن هناك تجارب سابقة. مجرد قراءات صغيرة. مشاهدة لوحات متفرقة في معارض عصرية. صور في صفحات جرائد أُتلفت بين النفايات والمراحيض. لحظتها تمنيت جمع تلك الرسوم والقصاصات التي مرت تحت بصري عندما كنت على صلة وثيقة بالعالم، أبحث في قمامات المدينة عن أشياء يمتلكها المتسكعون والسكارى، والقوادون، والأدباء المعاصرون، وأصحاب الشقق خافتة الأضواء.

ويومها لم يخطر ببالي أنني سأحاصر بمثل هذه الجدران

أمام طاولة من الحديد تطوى بسهولة، تتراكم عليها كتب ودفاتر هجع الغبار فوقها وغطاها الإهمال، مع انعدام الرغبة كي أكون ناقداً أو صحافياً من طراز يستطيع احتكار صحف المدينة والتربع على عرش الفكر ولو بطريقة مومسية.

في عصر اليوم الثاني خرجت من الغرفة بسرعة، متحاشياً العناكب. اشتريت خرقاً بيضاء وصفائح كرتونية وأخشاباً وألواناً مختلفة.

وعندما عدت انتبهت لاتساع الغرفة، وأنها مريحة.

كانت المغسلةُ تُساقط بشكل منتظم قطرات من الماء تورث في النفس إيقاعاً يوحي بالانتحار.

لعالمي ميزاته الرائعة: الهدوء. والحيادية المفتقدة في كهوف المدينة، ثم ممارسة أي اختيار بعيداً عن عجلات الزمن.

زحفُ المساء يرمي على الجُحر إيحاءً سريالياً، إيماءات توحي بالخيبات القديمة الصامتة. تمنيت أن أتغلغل داخل المساء الحزين المتلألئ بالعظمة. وداهمتني الفكرة. فلتبدأ تمرينك الأول على الجدار. كان ناصعاً في أماكن عدة، وكانت هناك لطخ في أماكن أخرى من رشح الرطوبة ومن أقلام فحم لأطفال صغار سكنوا هنا وخربشوا وجوهاً وجذوعاً، ببعض التجاوزات كانت إمكانيات فنية.

تناولت قلم الفحم وتقدمت من الجدار، كانت نقط الصنبور تسقط برتابة، فكرت: ماذا ترسم أيها السيد؟

رسمت مبدئياً دائرة. وضعت فيها نقطتين. ثم مستطيلاً وضعت فيه نقطة. وصلته من طرفيه بخطين منفرجين، كان بالإمكان وضع نقطة أخرى في منطقة التلاقي. ثم رسمت يدين مرفوعتين نحو الأعلى. وفي القبضتين حاولت إبراز التشنج وتابعت رسم خطوط مجاورة، خلفية وأمامية.

أشجار.. أشواك.. صخور ناتئة. وفي الجانب العلوي أبرزت عينين حقيقيتين فيهما وحشية، وفي الأسفل رسمت عظاماً مكسورة ثبّتُ بجانبها زهرة عباد الشمس.

كانت حمّى الرسم قد أخذت تسري في جسدي، وكانت اللوحة واضحة في ذهني. لكنها لم تكن هناك على الجدار. ومرت لحظة خاطفة خُيل إلي خلالها أن عمري سينفجر قبل أن أستطيع إيضاح تلك اللوحة على جدار أو ورقة، وكانت نقط الصنبور ماتزال تساقط برتابتها.

هاقد اكتسحت مسافة لابأس بها من الجدار، واشتبك مارسمته مع اللطخ الموجودة سابقاً. أحسست بالراحة وأنا أتناول الألوان، فتحت العلب وأمسكت بالريشة وبدأت أضرب اللوحة، على إيقاع النقط المتواترة في جوف المغسلة، وكان من الرائع حتى النشوة، بل حتى الموت أن يغرق الإنسان في عمل خاص يختاره هو، وكان هذا إحساسي بالضبط. وفكرت أنني لم أفُزْ في حياتي من كل مايسمونه معطيات مجانية بأكثر من هذا الإحساس العابر.

بدأت أشعر ببعض التعب في يدي اليمنى وهذا يعني أنني أنجز شيئاً، ربما لم يكن الشيء الذي أريده، لكنه على الأقل شيء من صنعي أنا. وتذكرت أرصفة باريس وروما ونيويورك وحياة الرسامين الملعونين الذين عايشوا البؤس بحثاً عن شيء يثبتونه، أو لاشيء أبداً «أنت رسام ملعون. فنان تخنقه المعجزة التي لن تحدث أبداً، معجزة الإمكانية في صحارى المستحيل، ومع هذا فأنت تعيش التجربة نفسها»، واتخذ المشهد وضعه الملون على الجدار. كانت ضربات الريشة المجنونة تفرش أشياء أخرى غير الألوان. وعندما انتهيت أحسست بالتعب والجوع.

كان في المطبخ ذي الرائحة الحامضية والمنتمي لعصر

منقرض بعض الخبز والشاي وقطع الجبن البيضاء. بدأت الأكل وأنا أرقب المشهد ورتابة نقط الصنبور ماتني تقرع رخام المغسلة، وقد تحول خيوطاً تسيل بهدوء كنوازل مغاور مهجورة لم تتجمد.

في داخلي بدأت الكرة المتماسكة تتحلل، واللوحة الحقيقية تنفذ من المسام، آخذة طريقها نحو موطن مجهول لاأعرفه ولاأذكره.

رشفتُ آخر ماتبقى في قاع كأس الشاي. رأيت الخيوط وهي تتكوم أسفل المشهد على الأرض. مدورة متطاولة كبقع من دم ثور مطعون في إحدى حلبات المصارعة.

رفعت بصري نحو الأعلى. كان المشهد فظيعاً ومحنقاً. لم تكن هناك معالم. بقع من الأصباغ تُمرّغ الجدار، كانت البقع غريبة مفصولة عني خلقها أحمق مصاب. وخيِّل إلي أن ماأراه لايوجد حتى في أردأ مستشفيات الأمراض العقلية، ثمة شيء تافه مجرد من أي هدف يمرّغ الجدار.

هاجمني صداع مفاجئ. دوار من الإحساس بالعقم والخواء.

«بالتأكيد أنت لاتصلح لشيء».

ومع هذا تصر الطحالب على تسلق جدران القلاع الحضارية. غمر الأسى بيكاسو، وسيزان، ودالي، واختفت اللوحة الحقيقية. كان علي الآن أن أنام.

3

أن ينهض الإنسان بعد نوم عميق وإجهاد فيحس بالحيوية والنشاط يتجددان فيه، وثمة مايُعمل بعد الفشل، فهذا لذيذ ومدهش وقريب من المعجزة.

كانت تلك حالتي عندما استفقت ضحى اليوم الثاني. نمت ساعات متواصلة بعد أيام من المثابرة لتخطي اللعبة التي اخترتها كما أشتهي. واللحظة وأنا يقظ مدرك بأنني لم أتفوق على شيء ولم أُنجز شيئاً.

كل ماهنالك، زمن من الإبحار نحو عوالم مستحيلة، واحتمالات اخترعها الذهن المريض وشحنتها المخيلة ذات القدرة العجيبة على تجسيد الوهم ومطاردته.

ولكن أكان الذي حدث حتى الآن ذا معنى؟

وجاءت حالة جديدة كمخاض. أن تفكر بعمل عن حالة إنسان لايعرف ماذا يريد. لا. إنسان يعرف، لكنه مصاب بالعطب والعجز، يبحث لافي العالم ولكن في أغواره عما هو. ماذا يمكن أن يكون. وهل يستطيع الفن أن يَهَب الحياة أي معنى؟

ثم خلال عملية الولادة هل يستطيع هدم حجر صغير؟ فتْح ثغرة في هذا الحصار الكبير المخيم على النفس والجسد؟

ثم هل بالإمكان أن تعوض عن حضارة دينية تقتل جنين الخصب، وتحوّل الإنسان إلى جرذ فقد المقدرة على التواصل حتى مع المومسات المباحات؟

ـ لماذا لاتجرب أن تكون روائياً أيها السيد الخلّاق؟

شيء واحد يختلف عما مضى. إنك تملك خلفية من القراءات والإنجازات الصغيرة وثمة كتب كثيرة.

أن تصبح روائياً في نهاية المطاف وتبدأ من جديد، تقدم شيئاً يحيا ويخلد. يهز ويفجع، فهذا باهر فعلاً.

ورغم أنني لم أكن من هواة المجد ـ وتلك الحقيقة اكتشفتها مؤخراً ـ غير أنني لم أكن أرفض المجانية التي ستوهب لي مع أول كتاب أنشره.

قد تكون البداية بسيطة. وربما استطعت أن أقبض على ذلك النغم أو تلك اللوحة حيث لابد أنهما يقبعان في مكان ما من لاوعيي.

كانت هناك الذاكرة والشعور. كنت خائفاً من الاختمارات الخلفية عن «كامو» مثلاً أو «همنغواي» أو «نجيب محفوظ» وغيرهم، وكان علي أن أتحاشاهم ما أمكن.

توقّعات مخيفة صدمتني في البدء. الإدراك السابق، وعدم الشهرة. مشكلة الناشر، القارئ الذي يفضل النوم أو الرقص أو السكر على قراءة كتاب لناشئ أو جديد أو مشهور. ثم أولئك المتعصبون الذين يتقنون إطلاق الرصاص على كل موهبة تحاول أن تثبت جدارتها على هذه الأرض الموبوءة.

ورغم ذلك بدأت: «هذا السقوط الرتيب لنقط مختلفة لاتمتّ لبعضها بصلة، يوحي بالانفصام. يرمي في أعماقي كآبة صماء عن الشعور بتفاهة العالم وعجزه. إنه يذكرني برجل زنجي ينام مع امرأة شقراء في أحد الفنادق البعيدة، تنتشي بحضوره غير عابئة بتباين اللونين، جسدها الأبيض كقطع الثلج، وجسده الأسود كفحم الغابات».

وتوقفت لحظة، إنني أكتب عن عبث «كامو». لم أستطع المحايدة، ورغم هذا شعرت بلذة غريبة وأنا أحرك أصابعي على السطور، لابد أنني أصنع شيئاً جديداً. طريقتي الخاصة في المعاناة.

وتابعت: «ولم يكونا في الزمن، والمشكلة لاتبدو في مثل هذه البساطة. كان هناك محاصرون آخرون يعانون حالات مغايرة تنتمي إلى العصر البائس. كنت واحداً منهم، تعذبك مشكلة الكفاية، تود حصر العالم في قبضتيك يا «كاليغولا» العصر الحديث، لكن ذرات الرمل الصغيرة تفر بعفوية وتنزلق من خلال أصابعك،

والزمن ليس في صالحك. التجربة قد تستهلك العمر ثم تقف على حافة الهاوية لتقول: ها أنذا أراوح في النقطة نفسها! ليس ثمة من فروق بينك وبين البقَّة الحمراء ذات الرائحة الكريهة، وهي تنسحق تحت أصابع مجهولة، وهذا مايحدث لك. لانَغَمَ هناك، ولالوحة، والمطر لايسقط. كل ماهنالك طفل تهرسه العجلات وأنت تعرفه أيها الرجل الجرذ، يا من يعيش في أزمنة القطط السوداء.

لاشك أنك تستطيع كتابة القصص الفاشلة، وتتخيل النساء العاريات، وتسافر نحو الجزر المهجورة، لكنك إذ تستيقظ تكون الشمس قد دخلت في الكسوف».

كانت طاقة الكمون هي التي تدفعني للاستمرار رغم أن ماكتبته ذكّرني بقراءات سابقة. وداهمتني فكرة نفذت كالسهم: «هل تستطيع إحداث خدش بسيط في قشرة الأرض؟».

صلبوا حياتهم وفقدوها من أجل التعبير، ومازال البؤس والقصور هو.. هو.. لم يتبدل شيء. كل ماحدث هو الطريقة التي ينفجر فيها الحزن والحماقة والإرهاب ضد الإنسان. لم أكن أود الاستسلام رغم هذه الفداحة في ممارسة القسوة: «هذه التجربة في تعرية النفس والعالم والتحدي كم هي فذّة.

ذكّرتني بامرأة لم أعد أتواصل معها، لا لشيء إلا لفقدان القدرة على الحب، ولأنني أودّ أن أكون صادقاً!

قالت يوماً: أود أن أكون لك!!

صحبتني إلى غرفتني. شربت البيرة. وقرأتُ شعراً. تمددت على الفراش. قاومت في داخلي صلابة الجدار المصنوع من حماقات القرون. هَمَست: إنني لك!

وقلت لها: لايوجد بيننا تواصل. وصمتت. ثم دسّت لسانها في فمي وحركته بطريقة أفعوانية. تذكرت روعة التحدي والإغراق في

التجربة إلى أبعد مدى. كانت امرأة ذات مواهب حسية. لكنك كنت تكذب عليها لأنك تبحث عن الخصوبة. عن الاكتفاء الذي استلبه الزمن».

في فراغ الغرفة رف الحزن والوجع بأجنحتهما اللامرئية.

قرأت هذا الذي كتبته أكثر من مرة. كان يعنيني فقط. ومعنى ذلك قبض الريح.

كم هو مريع ذلك الوعي الحاد الذي يهشم كل الأحاسيس البريئة، ويُفقد الأشياء نموها العفوي وسلامها الجميل.

كانت النقط ماتزال تتساقط بتواتر إرهابي هيّج مفاصلي فتبدَّت الغرفة باهتة بلا حياة.

لابد أنني غير منسجم، غير متلائم. كان يفصلني عن المعتوهين نافذة من زجاج، لو سقط حجر صغير وثقب ذلك الزجاج لعادت لي نفسي.

وراء هذا الثقب كان العالم يصخب. والبشر منسجمون، وقَّعوا مع هذا العالم عقداً بالمصالحة الأبدية في الوقت الذي كنت فيه أوقع عقداً مع القضايا الخاسرة.

نهضتُ بتثاقل نحو الصنبور. فتحتُ الماء المحبوس وتركته يهدر. الآن يمكن أن يُصنع أي شيء آخر.

دمشق 1966

الصدع والهجرة

الصدع والهجرة

1

لوحة الغياب

كنت أستلقي عارياً فوق أثباج الرمل الحارة، قدمي اليسرى مطوقة فوق اليمنى، مستنداً براحة كفي على بقعتي رمل، وعيناي تشردان في الأفق المترامي، تعبران البحر والمدى ولاتستقران على شيء.

دفء الرمل ينسلّ خدراً خفيفاً مموجاً باللذة، والنعاس يمد الطمأنينة والدعة في حنايا الجسد. تتمدد الغبطة في مسامي فأتمدد فارداً ساقي، ويستريح الرأس بين فرجة الراحتين المتشابكتين، ومن الأعماق تصّاعد ترنيمة سلام:

«عومي في الغبطة يا نفس الإنسان،

وابتلّي بالسلام الهادئ الرخي.

وأنت أيها الجسد الكثيف

أدخِلِ الرمل الحار في سرادقك البارد.

قلبي مطمئن كعصفور مبلل تحت الشمس،

وروحي البرّية تعافُ جميع المدن».

بذلك ترنمت النفس الهاجعة. فهنا على هذه الكثبان الحبيبة الممرعة بضوع الطفولة تتوارى كل أحزان الأرض. يعمر القلب بالفرح ويصرخ في نشوته: آه.. لو يُشنق أبداً الإنسان في ساحات أزمنة الطفولة التي سافرت ولم تعد.

عن يميني تقوم الأرياف. قرى متباعدة بيوتها المطلية بالحوَّار تتألق في أصائل الأيام تحت شمس الخريف الغاربة، وأشجار التوت والتين والزيتون المعمِّر تسفعها ريح الشرق العنيفة. ريح لايحبها القرويون لأنها جافة محملة بالكوارث والأوبئة.

تتحدر العينان من الريف الفارش أعالي الجبال والسفوح بأشجاره وزهور لياليه المقمرة في سهرات الصيف، منسابة نحو السهول المتاخمة للساحل، حيث تتناكب مروج الفستق الخضراء، وتنهض كالنبال مزارع السمسم فوق فسيح الأرض. تميلان صوب الجنوب حيث تتفارع شجرة الجمِّيز القديمة، عملاق السهول الخضر وحارسها، تطل من فوق عصورها الرحبة قيصرية شامخة، كتمثال إغريقي مبسوط السواعد، يشير نحو جنده الغافين في أسرَّة السهوب، تقص حكايا البشر المهاجرين الذين بددتهم المسافات. من تخطّفه البحر، ومن اعشوشبت الأرض على لحده، ومن هو قيد الموت.

بعيداً.. بعيداً. في السهل المتموج الخضرة، خلف مدّ البصر يكوّر فلاح قبضتيه كالبوق. ينفخ فيهما ثم يفرك راحتيه ويتناول مجرفة إلى جواره. يهزها باعتزاز وهو يرفع رأسه، وبكلتا يديه يشدخ بها الأرض. ضربات متلاحقة يكاد ينخلع منها بدنه.

قليلاً وينتشي، فيسفع صوته السهل بموال عتابا يتماوج عبر الفضاء، ويرف مسحوراً فوق مياه الساقية المغرغرة، وهي توزع الماء في مساكب الأرض، فيرتوي القلب بالفرح والزهو.

على تخم الأرض المجاورة تجلس صبيّة نضرة القسمات، شهية الوجه، تنكش الأرض بعود يابس.

فوق ذراعيها المكشوفين يغفو زغب ذهبي يلمع تحت شمس الخريف، وحول الوجه الطفلي الهادئ، تنسدل خصلات شعر يراقصها نسيم يرفع الثوب فتقذف العود بعيداً، وتعيد ثوبها. آنذاك يقع بصرها على مجرفة صغيرة مرمية قربها.

- لماذا تجلسين كالصنم هكذا يابنية؟ يسألها الأب.

ووسط الخضرة العائمة تشمخ قامته شاهقة كأنصبة المحاربين في ساحات روما. بينما تنعكس الشمس على وجه شوته حرارة الأيام، وفي أخاديد ذلك الوجه العاتم المومياني تنام حكايا السنين. حكايا مريرة، خفيّة ومقهورة. وجه نمر مشوّه فيه شطوب من عراك قديم، ولو أطار الهواء قبعته البيضوية المنكفئة أبداً، لبان أثر ضربة سكين في نصف الجمجمة من ثورة النبع الشهيرة ضد ملَّاك الأرض. لم تجب الصبيّة. تتململ مُغِشَّة بالنهوض، فيشرئب وجهها الطلق في أصيل السهول.

يهتف الأب التَعِبْ ثانية بصوت أجش: «من زمن قريب تغيرتِ يابنت. ما الذي غيرك؟ كنت تضربين الأرض دونما كلل من الفجر حتى المغيب. أيكون ذلك لأنك صرت عروساً! يوم خطبت أمك ازدادت همتها في السقي والتعشيب وقلع الفستق. على كوماته كنا نتبادل الحب والبسمات!!

ويهز رأسه قليلاً وهو يسحج التراب المحصور ليجمعه بوابة لتوجيه المياه: «أم أن مايقولونه في الضيعة صحيح؟!».

عن التخم المعشب تتثاقل ناهضة، تمسك مجرفتها وتهم باتجاه المساكب الجافة حابسة في مقلتيها دمعة. يستمر الأب في رفع التراب بينما تهجم مياه الساقية الغزيرة نحو البوابة، تدهم جدارها فينهال قسم من التراب المذاب في جوف الساقية. آنذاك تنحرف حزمة المياه الهاجمة، غامرة مساحة المسكبة المستطيلة، تنشّ وهي تروي جذور الفستق المختَرِق بإبره أديم الأرض. يتابع الأب حديثه بينما تنتشر قطرات موحلة على ثيابه تحدثها ضربة مجرفة فتبقّعها: «في الضيعة يحكون أن خطيبك نزل إلى مستواك. هو تخرج من الجامعة وأجمل بنت في العالم تبوس حذاءه ومع ذلك رضي بك خطيبته. وأكثر من ذلك، وهذا ما أثارني، فهو لن يسمح لك بالعمل في الأرض، صحيح هذا يا ابنتي؟ أصدقيني؟

وتصمت البنت. تنحني فوق المسكبة التالية تفتح نافذة للماء بعد إرواء المسكبة السابقة. يهبُّ نسيم الشواطئ رخياً فاتراً يدغدغ الشعر الذي قُصَّ حديثاً، وتتمور النشوة في ضمير السهل المترامي، وفي جوف تينة قريبة يزقزق عصفور. يطير حتى حافة الساقية، يشرب ويبتل، ثم يرفّ ويخترق الفضاء.

ويتابع الأب بحزن: أيحتقر «زاهي» التعب. يخاف تقشير جلدك! أن تبقّعك الشمس بالكلف! أن تتشقق يداك وتتحفر قدماك؟ هه. المهم يابنتي أن تبقى نفس الإنسان صافية. الجمال يسكن النفس أما الجسد فطعام للدود، ماقيمة ابن آدم إذا لم يعمل؟ نحن فلاحون ونفهم الحياة هكذا. ربما كان خطيبك يخجل أن يقال له ابن فلاح أما نحن فهذه مفخرتنا!»

كان العرق يسيل بين شعرات ذقنه التي لم يحلقها منذ أيام، متراكمة حبيبات بلورية أسفل الذقن المدببة، لاتلبث أن تنهمر مختلطة بالمياه والوحل. يتوقف برهة متكئاً على المجرفة يرقب اندياح المياه في عرض المسكبة وهي تتلألأ كالفضة تحت الأشعة.

يحس ثقل القبّعة فيشيلها عن رأسه، ويرميها فوق التخم المجاور: «طبعاً ابن الجامعة أكبر من بنت الفلاح. يعتبر نفسه أفهم منك هو يأمر وأنت تطيعين. عمرك كله يا «أميرة» سيمضي في الذل والإهانات. هو فوق وأنت تحت. أنا أعرف ذلك أما أنت.. والله سيأتي يوم لن يسمح لك فيه باجتياز عتبة دارنا. منذ الآن يمنعك من العمل في أراضينا ويحرضك على عصياني وأنت كالغنمة تطيعينه».

وعن بعد يلوح البرج القديم. كومة من الحجارة البنيّة كصخور الجزر، لم يبقَ منه مايدل أنه كان مرصد البحار غير كوى صغيرة شبكها العنكبوت بنسيجه الرمادي، وفوق أعلى صخرة فيه انتصب أحد ملوك البوم يسحق بمخلبه حية صغيرة تُحتضر.

ويواصل الأب انتقاداته، وكأنما حديثه نجوى سريرة حُبست منذ زمن وفاضت الآن: «أنا لست طامعاً فيه ولابشهادته. أمه وأبوه عزيزان عليّ. قلت: شاب مثقف، يفهم، جارنا وابن الضيعة ليس غريبا. يزن الأمور بميزان العقل. أبداً لم يخطر ببالي أن زاهي سيقف هذا الموقف الجاحد يوماً. يحمل شهادة عالية صحيح، ولكن هل شهادته نزلت عليه بقفّة من السماء؟ أليس ابن فلاحين، وكرم الزيتون الوحيد الذي يملكونه أما يزال مرهوناً حتى الآن من أجل سيادته؟ على الزيتون والبصل عاش الأبوان حتى نال هذه الشهادة، والآن كل الضيعة تقول راح الإمبراطور، جاء الإمبراطور، هاهو الإمبراطور. يمر فلا يلقي التحية على إنسان، صار أكبر من كل الضيعة. والله لاأذكر يوماً ناداني فيه يا عمي، ولا سلم علينا، يدخل البيت كأننا غرباء عنه. آخ يا خسارة العلم»!

في عين الصبيّة تترقرق دمعة ساخنة، وفي النفس تتواثب أحاسيس غريبة، محزنة ومتناقضة. كانت الفتاة تبدو كموثقة بحبلين في ساحة، وثمة مباراة بين الأب والعريس، كلاهما يشد

الحبل الذي أمسك بطرفه. لم تكن تملك أجنحة لتطير وتعلم من هو الخاسر. إنها تتذكر كلمات فارسها الغائب حول الشعر والحب والمدن الغريبة. عن فردوس الزمن المغلق، وعن البشر والعزلة والأفراح والحياة العامرة بالدهشة، والنشوة والأحاسيس الغامضة. كان للكلمات مفعول سحري وقاس «أنا أو أراضي والدك عليك أن تختاري بيننا. إلى الشيطان الأرض ووالدك وأمك وإخوتك. أريدك لي فقط. أنت مملتكي وأرضي، شمسي ووطني. منذ الآن لستِ لأحد. سأطلِّق العالم لأنضم إليك، لأصنعك من ترابي الخاص. لن تضربي في الأرض بعد الآن معولاً. أنا إلهك أتفهمين؟ ويضيف: جلدك ليس للشمس، سأصد الشمس والريح والتعب عن وجهك النقي. صمتُ ملايين السنين. انحرمْتُ. قَبَع البشر بأحذيتهم المسمارية في عيني. نهشوا طفولتي. زنوا بي. واليوم أنا نفسي لست ذلك الآخر. إلى نهاية العالم سأجرك معي وعلى تاريخي القديم آلاف اللعنات».

يومها أرسل الرسالة من بلد بعيد. كم بكَتْ بعد قراءتها. ودَّتْ لو تطير إليه، لو تبقى قربه حتى نهاية الدهر.

يمسح الأب عرقه المتصبب بطرف كمه بينما تميل المياه في أحد مساكب الفستق فيسرع ليوجهها، فاتحاً ثغرات متباعدة بطرف المجرفة. يوازن المياه ثم ينفض الوحل العالق بحرف المجرفة على التخم القاسي المعشوشب بضربات قوية على قفاها. يضعها في غمرة الساقية الأم، يخضها مزيلاً آخر تلة وحل وتصرخ البنت: أبي فاضت المياه في المسكبة اقطعها. اقطعها.

كالنمر يثب، يجتاز الأرض، والمياه الموحلة ترشق ثيابه وتنقطها، قدماه المشعرتان العاريتان حتى الركبة تغوران وترتفعان مرة تلو الأخرى، باعثاً في هرولته وانخفاضاته صريراً كتلك التي تحدثها الأقدام في كومة طين.

بضربات سريعة متقنة يقطع الرجل الماء عن المسكبة، ويوجهها نحو التالية ثم يقف لاهثاً: ليس التعب عاراً يا بنية. إنه شرف الإنسان والإنسان الشهم لاينسى أصله. يذكر الميلاد والكفن. يذكر الأرض مائدته ولحده ولايلبط النعمة. الأرض وطن الإنسان والله لو صار لي ألف ولد كل ولد سيعمل كأخيه في الأرض حتى لو أصبح وزيراً، أنا ربيتك وأنت ابنتي. عندما تتزوجين وترحلين عن بيتي لن أعود وصياً ولن أرغمك على شيء أما الآن فلن أسمح لغريب أن يتحكم بأموري ويعصي ابنتي علي.

ويحس بأن التعب والحزن قد اخترماه، فيتوكأ على المجرفة المغروس نصفها الفولاذي في الوحل. يمسح يديه المبللتين بسرواله ويمد يده إلى جيبه، يتناول منها علبة دخانه العربي الرصاصية، يفتحها ويدرج سيكارة. يبلل الورقة البيضاء الشفافة بطرف لسانه ويختم اللفافة. يعيد العلبة إلى مكانها ثم يشعل السيكارة بقداحة بنزين عتيقة تصدأت، ويروح يزفر الدخان والتعب: طاعة الوالدين من طاعة الله يا أميرة. والندم يداهم الإنسان بعد الذنب. أيام الإنسان ليست فرحاً، إنما الغم والكآبة ديدبان البشر في هذه الدنيا، وبعد المعصية ماذا ينفع الندم، لاتأثمي يا ابنتي، بالصدق أقسم لك أنك ستذكرين أباك والأرض وهذه السهول الجميلة. وعندما يشتد عليك الحزن ستقولين: كان أبي محقاً. يا لأيام الطفولة السعيدة لو تعود. سراب... سراب هي الدنيا يا أميرة وابن آدم لايأخذ معه غير حفنة تراب في فمه «فما الدنيا إلا متاع الغرور».

كان ينفث الدخان ومع النفثات يرحل الغضب، ومياه الساقية العكرة تغرغر وهي تغل في شقوق الأرض العطشى تحت جذور الفستق المفروشة كالأرغفة.

على خدَّي الصبيَّة تسيل عبرات تنساب حتى جانبي النحر، ويروح نهداها الصغيران يخفقان كفرخي حمام داهمتهما شواهين

جبلية، وهي ترفع فأسها لتخدش سطح المسكبة في ليونة ووهن.

وئيدة تزحف المياه فتغمر قدميها الحافيتين، تغوران على مهل في سبخة الوحل. ورويداً تغوصان تحت ثقل الجسد ورخاوة الأرض الهشة؛ وعلى الوجه النضر ماتني الدمعة تنحدر.

كان الأب يراقب صغيرته وهو يسند مرفقه الأيمن على عصا المجرفة، مائلاً بنصفه فوق الأرض الخضراء.

يُتَوِّجهَ الحزن فيحس بقسوته وبالصدع أيضاً. ببصيرته وتجارب أيامه الماضيات يخاف مصير ابنته. فيدرك خطأه، يتمتم لنفسه: الرعاة يقيمون وزنا لمراعيهم الخضراء، والفلاحون وحدهم الذين شَقُوا مع الأرض والشمس لايتذمرون لماذا حدث ذلك. لماذا...؟

يتقدم متمهلاً صوب ابنته وقد شعَّ في صدره إشفاق مفاجئ. ضوء أبوي سطع على روحه فجَّرته الأيام القديمة لبيت كان يمور بالمحبة والفرح والسلام. بيت العائلة الكبيرة وقد كان سيده وراعيه. البشر والدواب فيه. رائحة الإنسان ورائحة الروث. أحد ما في البيت لم يكن يتذمر وكان بعيداً عن أنوف الغرباء. أميرة كانت تعرف عملها في أيام الصيف وعطل المدرسة، تثب مع الصبح كالأرنبة تطعم الأبقار والحمير التبنَ وأوراق الفستق المعبأة في بيت المؤونة، تحمل زوادتها وتسرح بالعنزات إلى البراري. وفي المساء بعد عودتها تنتظر رجوع البقرات من السهل. تحلبها وتطعمها والفرح يطفح من عينيها.

حياة.. حياة بسيطة. خصبة ورائعة كالندى فوق الأوراق، كغيمات محملة بنذير المطر في مواسم الحراثة والبذر، تتوِّجها العشيات بشواء الفستق والبطاطا الحلوة وبتفتيت الشعيرية وحكايا الصبايا العاشقات.

كذلك حياة الأسرة كانت تمضي.. وتمضي.. وتمضي.

لنفسه وهو يحاذي ابنته يهجس: أيكون العمر حلماً عابراً. إيه ياأميرتي المسكينة أيخطفك الغرور ويسدل النسيان فوق روحك الطيبة ويقول الناس: «الحمقاء حلمت بالقمر فأضاعت الأرض».

يشرق بغصّة فقدان وهو يلامس جسد ابنته، فيخيل إليه أنها ليست له. لن تكون بعد الآن. سُرقت. قطعة من جسده يبترها آخر ويهرب بها بعيداً. تصوَّره يلوِّح شامتاً: «أيها الرجل العجوز أنت تلد من صلبك ونحن نغرف حبات قلبك. عشْ وحيداً. هانحن راحلان بلا وداع» وفي سمعه ترن قهقهات لص غريب يطوي الوعر هارباً بضلعه المجتَث. يغيبان رويداً.. رويداً وفي الضباب يتلاشيان.

تتوقف البنت عن العمل، يطوقها بذراعيه، ويعتصرها بشدة. تتوسل عيناها عيني الأب المصاب، ويتململ الرجل ضراعة مغرورقة، فتبدو كطائر يخبط في شباك الشرك. تود لو تصدع السهل: أبي.. أنا في المصيدة. مصيدة كل البشر. آه لو تدرك محنتي!

وتتموج الآمال. تعدو وتتلوى خلف ناطحات سحاب، عبر شوارع مضاءة تلمع كسطح بلوري. أقبية ليلية تفوح بالجنس والدخان والرقص. بعيداً جداً في ليل الوثنيين، في مدائن الضباب، رقصٌ وحشي ورقصٌ حالم تعزفه موسيقي الجاز والروك والتويست والنفس الهاربة.

تويست.. تويست ويخنع الجسد. تتمدد النفس مطاردة المدن الغربية، تمتطي «النورستانا» وتجتاز الفواصل. وحيدة مسعورة بالمدى، تهدم حدود البشر، تترك خلفها محطاتهم المعبأة بالحقائب. حقائب مطلية بالغبار منسية من عصور الأنبياء القدامى خلف الجدران السميكة.

جرياً.. جرياً.. لاتنثني إلى الوراء. هاجري يا شقية. باعدي المسافة ما استطعت. اطوي خرق الأيام التعيسة واقذفيها في جوف البحر. كل شيء يبدأ بعد هذا الطيلسان الأخضر المفروش على

جسد الزمن. هو الفاصل ومقبرة الحدود. للأيام هنا رائحة التوابيت. والعنكبوت في أوجار محصورة يفرز السم ويموت، يغتذي بالحقد وبسنّيه العجاف. لتعمر أرض الفستق والسمسم بالبوار. الطفولة. الهذيان القديم. الأصدقاء. حكايا خُرافية عن مجد الإنسان. عن ربيع دائم رغد. وعن شمس تسطع في الظلمة وتتحدى الكسوف.

هراء. هراء. ليس إلا الإنسان المسخ وملايين الأحزان، وفي المدن البعيدة يولد البشر والرقص.

ويضمها الأب كما في غابر الأيام، كما في أزمنة الطفولة وليالي الشتاءات المرتجفة.

لو يبكي. ودّ ذلك غير أن الكبرياء يحجمه، فيتمتم بخفوت دامع: تتركينني وترحلين مع الغريب. سينفطر قلبي من الحزن يابنيتي. آه.. الثمرة يأكلها الآخر ربما كانت تلك سنّة الحياة أما المعصية فإن الله لن يقبل بها. سيحزن الله وأنت لن تكوني إلا تعيسة. تعيسة إلى أبد الأبدين.

وتغلبه العبرات. تفيض المياه أسفل المسكبة وتتجاوز التخم نحو أرض جاره، تتغلغل بين عيدان قصب السكر الصغيرة، ويتعالى هدير البحر.

2

لوحة الحضور

مُذ خسرتُ طفولتي وأنا أحلم بخيمةٍ مشرعة للريح قرب شاطئ البحر. خيمة من القصب أغفو على عرزالها في أمسيات الصيف الوديعة، أغزل في الليل أحلامي القمرية وأغور في فضاءات الصمت، أسمع الصدى والجنيات وهسيس البحر.

غير أن كل شيء يتبدد، حتى الأحلام لم تعد تتخطر في دروب النفس الشقية. كل الذي بقي: الذكريات وشجرة الجميز، وهذا الشريط الفاصل بين خضرة البحر وخضرة السهول، خط رملي متعرج لابدء له ولانهاية، يزركش ثوب المتوسط ويرهج على حافة الذكرى بين الطفولة وبؤس الرشد.

هاأنذا الآن مُرمى فوق تخوم هذا الشريط. غريب كنورس البحار الخافق في سماواته بهدوء وحزن. يزقو بنواح دائم، وكأنما يضرع للبحر والجزر والشطآن أن تهديه لفراخه التي ابتلعها البحر والصمت.

إنني لأتساءل وأنا أستلقي في مهد ذكرياتي تحت وهج الشمس: ما الذي بقي لأولئك الفرسان القدامى بعد أن عصفت الرياح بسفينتهم ورمتهم على شواطئ مهجورة. يتيهون عبر مدن كبيرة غريبة وقد حُفر على جباههم وشم «الفارون من حريق قرطاجة»؟

تحترق المدن يا صحاب، ويدمَّر مابنته النفس طيلة جيل ما. تنتشر الروائح ويسافر الدخان إلى ماوراء البحار، لكن يظل النورس النائح يحوم ويصيح على شواطئ الفستق والجميز السامق: «ذلك مايبقى من رماد المدن المحترقة!!».

من نزهتي الصوفية أيقظني ظل تهاوى قرب قدمي: لمن الظل؟ وأغمضت عيني تاركاً للمفاجأة فسحة صغيرة.

انهمرت نحنحة.

ـ بماذا يحلم سندباد! أما آن للهجرات أن تنتهي؟

فتحت عيني رويداً. كان فوقي يطل على جسدي المرشوم بالرمل.

ـ هيه. أهذا أنت. أية لعنة دمشقية قذفت بك؟ أما تزال تحيا؟

ولم أتحرك. حتى المصافحة والتحيات كانت تبدأ بيننا على هذا النحو. نسدد النظر ونبتسم. يلقي أحدنا كلمة أو يصمت، ثم تسيل الكلمات بعفوية دونما خداع أو جهد مفتعل. قلت: قبل لحظات عبرتَ في ذاكرتي.

هز رأسه ثم قال: بمحاكمة من نوع جديد طبعاً. ولكن قل لي متى تنتهي مدة إقامة الشرطة في غرف رأسك؟ إيه ثم ماذا؟

- ثم لاشيء. ها أنت تحضر أيها الديب قبل أن أحضّر القضيب.

سألني زاهي عن المسبح الجديد. غمز بنصف ابتسامة: لحم سائب فوق الرمل. هاه. الشرق ينخرق!!

على خطوات منّا راحت فتاة تثب وقد بللتها مياه البحر. كانت ترتدي مايوهاً فاضحاً لحمها الأسمر يبرق بنصاعة تحت وهج الشمس. القطرات تسيل على مهل منزلقة فوق اللحم، ثم تتكوم في الثنيات وعلى الأرض. نفضت شعرها، ثم رفعته عن وجهها بتيه وغنج وقفزت في الهواء مقدار خطوة أو أكثر، ثم انبطحت على أديم الرمل، وراحت تؤرجح ساقيها في الفضاء مقلقلة مؤخرتها.

قربي تمدد زاهي. كان يرمح شهواته الباطنية في اللحم المرِمى، يعريه بضربة واحدة من رفة العين، فيستوي تحت براثن رغبته مهتوك الستر.

في أوائل تعارفنا، كنا نغزل الساعات جدلاً حول الجنس والرغبة، والتعويضات العرجاء التي تكسر حياة الإنسان فتحيله لصاً يشتهي في الظلمة جميع نساء الأرض، يزني حتى بالمحارم. وأذكر أنه كان لاينفك يردد على مسمعي: الجنس.. الجنس. أحس بأنني برميل طافح، وهذا الطفح يخنقني. أن نُنقص هذا البرميل ثم نفكر ببناء الوطن ذلك ماينبغي!!

يومها كنت أصِفُه بالسيالة العاطفية.

ويعقِّب على كلمتي: بناء الإنسان معناه أن تصحح الميلان في النفس، أن تخلق توازناً، انظر إلى الأجيال العربية كيف هي مائلة!

ولم يكن بيننا خلاف حول الكثير من الأمور الخطيرة، تلك التي تبدو المصارحة فيها شبه محرمة. نتقن انتقاء الزوايا المعزولة، نفترع فيها أغشية السياسة والدين والجنس بعيداً عن عيون صيادي الأخلاق. ومن هناك، من وراء زجاج النفس الصاحية، يبدأ الإطلال على عالم البشر الرحيب والمظلم. ينبسط كل شيء ويتعرى. تتحلل الحوادث الطارئة يقينيات مرفوضة، وتبدو القفزات الاستثنائية خرقاً فذاً، وحشية مبررة تجبَه تحديات العصر والأصابع الخفية التي تغير العالم. وتتوضح الصلات البشرية وجبات يومية من الأفيون الرخيص تُتناول لتخدير فاجعة عزلة الفرد في كون يحاول الإطلال على مروج طفولته الثورية.

مع الزمن بنينا ما أسميناه «العالم المتميز». خرقنا وحدة الإنسان بكيفية من طقوسنا الخاصة، فانحفرت الصلة كوتد دُقّ في أرض قاسية. حتى الغياب الجسدي كان يعني حضوراً في ساحة الذاكرة.

الآن زاهي على بعد سنتمترات مني. قبل برهة كان غائباً وكنت معه على نحو آخر. أتمنى الآن لو أمد أناملي لأجسّه، هذا الذي كان يوماً يفيض بالغضب والاحتجاج على وضع الإنسان الأسير. هذا المتطرف الذي كان يقول: غباء.. غباء. الإنسان هنا يمشي على رأسه. النسف ولغم الأرض من الجوف ذلك مايصحح وضع الإنسان العربي!

يومها كنا نحلم بثورة تجتاح وطن العرب. تكتسح الركود والاضطهاد والكبت، لتطلق إمكانات العربي من أقفاصها المظلمة. تقبر البؤس والإرهاب وعصور الكهف والشرانق. كنا نفهم الثورة

انفجاراً من داخل الإنسان لامن خارجه وأنه لابد من ضحايا.

غير أنني الآن أرتعش وأنا أشعر بحضوره. مازال في النفس ميل ورغبة عامدة لصد التحول الذي انتشر كبقعة زيت فوق شرشف حياته الأبيض. تساءلت بذهول: أمن المعقول أن يتحول عالم زاهي إلى دوار محموم حول بئر غطست فيه أنثى ينزح الماء منها والعين معصوبة؟

لقد دار الفلك دورته، ومن ثم توقف فوق ذلك الوجه الناصع الطفل، وفي مجموع الجسد الشهي الصغير الذي سيُمتَلك يوماً ليعود الفلك يدور.

دُرْ يا فلك الزمان فوق القرون، واكسر أقفال الفراديس المغلقة. احمل قرودك إلى جزائر اللبان وأراضي اللحم الطري، إلى الليل والعتمة السوداء، إلى قفار البؤس والتوحد المرير. زجّ بهم في آبار اللؤلؤ والوهج. اتركهم وسافر إلى أماكن أخرى ودعهم يحلمون. توشحهم المرارة والندم والنسيان.

ذات يوم كان لابد للفلك أن يقف «بزاهي» على نحو ما، ولكن هل سيكون الثبات علي الرأس كبقية البشر؟ كخذروف تبرمه يد طفل فوق سطح من البلّور الصقيل؟

قلت له: هل تصالحت مع البشر زاهي؟

فردّ ببسمة باهتة: تصالحنا.

- وهل قامت الثورة؟

رماني بنظرة طاعنة: أنا أدرك أنك لم تعد بجانبي منذ زمن. ولكنني أقول لك إن الثورة مفهوم ضخم، كلنا يحاول صيد الآخرين به. حبل مبروم يربط البشر به، يلوح بهم في الفضاء ثم يقذفهم بعيداً عنه ليبقى هو. إيه يا صديقي القديم كانت أياماً يانعة رغم مرارتها، وكنا أطفالاً. الآن لم نعد، انكسر الطوق. صار بالإمكان

أن نقفز بحرية، نتنشق عبير السهول، نحب الفتيات ونحلم بالمدن الجديدة. صار بالإمكان أن نقول: لا.

ـ أيحزنك لو قلت لك شيئاً؟

ـ أبداً.

ـ يقولون بأن لك ظلاً كبيراً.

ـ جيد. هذا يعني أنني عملاق، من قال لك إنني لاأتوق كي أكون عملاقاً يعجن العالم بيديه ويعيد بناءه من جديد؟ كل شيء هنا يتلف ويُنخر. هشِّمه وأعدْ تكوينه. الثوري لن يتأبد في معابد ثوريته القديمة. قد ينخذل أحياناً. يرى الضوء فجأة ولأول مرة يحس أن العالم كان يفرّ ويعدو وأنه خارج العالم. لماذا لانفتح صدورنا للريح، نصهل كالمهور المشتعلة بالحرارة والجموح عبر سهول الشوق والمدى. الأحلام. الفتوح. تكبيرات المجد. المدن الجديدة والغامضة. عوالم الإنسان الخفية ماذا نعرف عنها؟

فوق سفينة مهاجرة، بدا لي عائماً كبحّار مولع بالكشف والمغامرة، تدخل ممرات روحه أنسام بلاد مجهولة تتموج بالعزاء، بالأجساد الشهية، بالصخب والذهول. قلت له: اسمع أود أن أسألك سؤالاً: هل تحب هذا البحر؟

ـ طبعاً.

ـ وهذه السهول الخضر؟

ـ بدون شك.

ـ وتحب نفسك؟

ـ ماذا تعني؟

ـ لماذا تمنع خطيبتك من العمل في مزارع أبيها؟

فاجأه السؤال فتجهّم. صار وجهه في لون الرماد، وانعقدت

أخاديد من الغضب والحزن على جبهته الصغيرة. تملأني بنظرة بعيدة عن الود القديم ثم انفجر: «أجل إنني أمنعها. لماذا؟ وقهقه بسخرية ثم تابع وهو يحرك رأسه مستخفاً: لماذا لاتوجه السؤال لوالدها؟ الوالد الكريم الشهم يرهق جسد ابنته كيلا يدفع لعامل أجرة زهيدة لاتتجاوز الليرتين. إلى متى تظل مستعبدة له ولمزارعه؟ ثم ماذا يعطيها مقابل جهدها؟ لاشيء البتة حتى ولافستان ولاحذاء، عدا مواسم الأعياد كما يحدث لأفقر إنسان في الضيعة؟

قلت بتوجس: أنت ريفي من قرية لبشرها ألسنة كالسياط. لهم عيون قاسية تنغرز كالحراب. وهم يحاسبون على كل صغيرة أو خطأ.

بيده أمسك حفنة رمل، ثم رشقها نحو البحر: إلى الجحيم. لقد جثم البشر فوق صدري قروناً. الآن يحق لي أن أرحّلهم عني لأبني كوخي بيدي. فيما مضى لم يكن لي بيت. سكنت بيوتاً لاسقوف لها، جدرانها مشققة ولها رائحة الخرائب. من منهم تقدم ليرأب صدوعي؟ لم يبق أحد لم ينحنِ ليمسك حجراً ويرجم. هؤلاء هم البشر الذين تهددني بهم.

تمطّى الهياج في عروقه. بدوت أنا كخصم في مبارزة. وددت من أعماقي أن أقطع صلتي به، وأن يتسيب بعيداً عن محاكماتي في شعاب الدروب التي يختارها. لاأدري كيف شعرت أنني آذيته. لقد واجهت صميم رغائبه. بدت لي صلتنا القديمة على مشارف الاحتضار. كان زاهي إنساناً آخر تمنيت أن أعرفه، أن أفهمه، وأن أحبه من جديد. أعتاده في عالمه الذي يبنيه.

انقلبت على بطني فوق منطقة رمل مجاورة أكثر حرارة ورحت أحفر في الرمل، أبني وأهدم كومات تشبه التماثيل وتشبه لاشيء البتة. قلت لنفسي: «هذا يوم كئيب».

في مواجهتي امتد شريط قصير من شجر الزيزفون، عبق أريجه في محيط أحاسيسي، وامتد البحر والمدى ورائي.

مرت هنيهة فكرت فيها بمتعتي بالبحر، وبالأجساد العارية المرمية بعيدة عني، محايدة لاتعنيني وتعنيني. حضورها ثقيل يسبب الأذى والمتعة. وفكرت بالصلات البشرية الشبيهة بحجر الطباشير المبتل. قلت لنفسي «عندما يهاجر زاهي سأحزن من أجله ولاشك».

خلال هذه الغمرة من الغم انسحب. نزع ثيابه وارتدى ثياب البحر. مرة أخرى غمرني حضوره. نحيف الجسد، قصير القامة، محروق الوجه. بين أصابعه تحترق سيجارة حتى منتصفها. علقها في فمه ثم مصَّها بشبق وراح يزفرها في الفراغ. كان يتقدم نحوي بخطوات ثابتة ووجه غمرته البهجة. فجأة سألني وهو على بعد خطوة مني: أتعرف ماهو الآخر؟

حدقت فيه ملياً. ثم انكفأ نظري نحو سور الزيزفون. سمعت صوته يقول: عجينة صلصال يا عزيزي الطوباوي. خميرة في اليد تهصرها حتى تتفتت، تصب عليها من ينابيعك لتصبح لينة بين قبضتيك، وبعدها تبدأ الأنامل في صنع التمثال بالشكل المرغوب المُشتهى. هكذا الأنثى يا صاح!

وبلا وعي تمتمت: «الأنثى المستلبة. الضلع المسروق. الوطن الخاص جداً!».

لم أنظر إليه، كان الحنق يطفح في أعماقي، وكنت أود أن أقول أشياء مؤذية عن التعويض والارتداد الثوري. عن الألعاب السائدة يمارسها البشر كأنما هم في حفلة كرنفال. في وعيي انبثق إحساس طوقني بالراحة والدهشة «لماذا خاتل زاهي نفسه خلال تلك السنين؟ أكانت سفينة نفسه معطوبة وهو لايدري ذلك؟»

اقترب أكثر، وركع على ركبتيه، ثم مدَّ كفه وربت على رقبتي:

«محال.. محال أن تتزحزح الشرطة من دماغك. ديَّان حتى آخر الدهر. اسمع جيداً، هي زوجتي في المستقبل وسوف لن أسمح لها بالعمل في الأرض. عملت مايكفي في سالفات الأيام أما الآن فلا. يجب أن تتحرر كما تحررت أنا من قسوة الآخرين. سنعيد بناء عالمنا من جديد بعيداً عن سطوة أهلها، وعن سوقية الحياة الريفية وتفاهتها. إنها كوخي، سقفي وغدي. سنهجر بلاد الفستق والريح والجميز والبحر والحنين، وستظل للذكرى فقط تلك القروية الصغيرة ملوثة الثياب والقدمين، والتي كانت تخوّض في الوحل من شروق الشمس حتى مغيبها. ولينسج البشر ملايين الحكايا عني وعنها. أما نحن فسننهل من ينابيع رغائبنا وننسى الجميع. سنبني أجمة صغيرة مريحة خلف الحدود وننجو».

في أعماقي فارَ غضب تجشأته سعالاً. رمقت زاهي بأسى وغربة. كان بعيداً عني وكانت المسافة تأخذ في الاتساع كدائرة المياه التي تلاطم حافة البركة. كنا متباعدين الآن. كل في شرنقته يغزل حياته على نول منفرد. لاصلة لأحد بأحد، هكذا منذ بدء الزمن. كانت هناك غشاوة غيَّمت فوق العين ثم انقشعت. كل الحكايا تعبر فوق الشطآن غريبة كنورس البحر النائح منذ الدهر الأول على فراخه التي ابتلعها المحار الأخرس.

وددت لو أقول لزاهي بأنه مخطئ باتهامي، وأنني لست أكثر من شاهد يعبر الدنيا على صفيحة جليد عائمة، والبشر كل البشر مسوّغون أمام نفوسهم، وإنني لاأؤمن بعالم القضاة. لكني سمعت صوت قدميه الحافيتين تخبَّان فوق الرمل مبتعداً.

تهدل الصمت من جديد وعادت النفس من رحلتها. استوى البحر تحت عيني مرصّعاً بزعفران الشمس الموشكة على الغياب. كنت مقبوضاً بحبال رصاصية تثقل ضميري.

انحسرت موجة إلى جوف أمها. تمالكتُ واقفاً ورحت أنفض

الرمل العالق بجسدي. من بعيد لاحت الجمّيزة القديمة مشرعة في فضاء الرب. غادرني دفء الرمل وبهجة الأصيل، وفي الأعماق ارتمت كآبة. رنوت إلى البيوت الطينية المحوّرة وقد بهتت في جنازة الغروب. سمعت ضربات المجرفة تعيد شدوخها في التربة الحمراء.

في الأفق وراء الضباب تخيّلت طائرة تتسلق الفضاء وتغيب في مدار الزمن والسديم، حاملة الأنثى والصديق ووشاح النسيان. آنذاك بللني حزن السنين القديمة والفقدان. قفزت فوق الرمل ثم هويتُ في جوف البحر.

حصين البحر 1966

هذا البلد الأمين

هذا البلد الأمين

1

كان الشارع برصيفيه الرماديين ضمير دمشق الآخر. وفي تصورٍ ما كان يشبه متاهة مسقوفة يعبرها البشر ليقدموا خلال مسيرتهم طقوساً غافلة، تفوح روائحها على طول الشارع في أصائل الصيف.

وفي لوحة أخرى، كان نهراً ترفده جداول تتشعب من خاصرتيه، حاملة فوق متنيها مواكب الحجيج في ثياب زاهية تنام تحتها الحسرات.

على الضفتين، وتحت العمارات المنسية، كانت الحوانيت تبدو في تألقها المصقول والمغري. وفي منعطفات الروافد تتكهف حانات الخمر.

داخل دمشق شوارع عريضة ومضاءة، بعضها تتسامق على منكبيه أشجار السنسرخت والصفصاف الباكي وتمتد غيضات الياسمين الرطب، وبعضها الآخر استلقت في وسطه أحواض دائرية

من الرخام الأبيض، نبت فيها الزهر ووازته الحدائق المشذبة، وعلى جانبية أُتلعت أبنية بيضاء وملونة، مريحة وخاصة. غير أن شارع الصالحية الكامد والعاري من الشجر والضوء كان طريق الهجرات المسائية. على كتفيه تترنح خطوات الناس، وتشيل محسورة كسيرة عيونهم القلقة.

في عطفة الرافد الثاني من النهر، وإلى الداخل تتلبد حانة أبي ناصيف، ضيقة مشطورة لغرفتين: الأولى في المدخل بعد أن تفجّ الستارتين الخضراوين، والثانية أصغر ترتقي إليها فوق درجين من الحجر الأسود المتسخ، حيث يفاجئك وجه الخمّار الساكن المضموم، وهو يضع في خُقّ زجاجي مثلم الحوافي حفنة من البزر والحمص الهش، مادّاً نحو الرف يداً آلية تتناول بطحة مع كأس يركزهما بهدوء فوق طاولة كئيبة من خشب السنديان العتيق، ثم ينكفئ دون أن يرنو لوجه الغريب المستلقي.

في الطابقين تزحم الطاولات السبع المكان مع الكراسي، ونحو السقف الواطئ المطلي بدهان أزرق مبقع بروث الذباب، يتسلق الدخان ممزوجاً بالأنفاس وبخار الخمرة.

الساعة السابعة تماماً. الحانة ابتدأت تغص بروادها، متحوّلة إلى جرة نحل، وبدأ الفراغ يثقل بروائح اللهاث والحسرات، متقاطعاً مع دخان التبغ ورنين الكلمات. وفوق هذا الجو الرخو المحشور عام أبو ناصيف كشراع كتيم مبحر يخرق الريح والوجوه وطنين الحكايا العابرة.

هاهنا مرفأ الخائبين. وتوضع قدم عريضة على أرض المدخل. يشطر الستارة منكبا رجل مُضْرَم الوجه، انحنت قامته ووسط شفتيه الكابيتين انغرست سيكارة غليظة، وترتمي القدم الأخرى على أرض الغرفة.

خطوات متقاربة وئيدة بُحّ إيقاعها. تتسلق قدما الرجل

الدرجتين وعيناه لاتطرفان نحو أحد، وفي الزاوية اليمنى فوق كرسي يرتمي.

إيه..! ويمج سيكارته المثبتة فترتفع كومة مبعثرة من الدخان الواهي أمام الوجه المغضن. يسرح قسم منها نحو الجبهة المخددة، ثم يتغلغل خيط رفيع في ممرات الشعر الرمادي المرجّل بعناية، ويتبدد.

بتلقائية الزمن وهدوء رجل عريق في إدارة سفينة النهر، يتحرك أبو ناصيف بقامته الطويلة ويديه الميكانيكيتين، حاملاً فوق صينية مقشورة الطلاء وليمة الرجل الذي جاء.

ـ أبو ناصيف..

ويخنق بقية الكلمات سعال حاد متهدج، تتورد منه وجنتا الرجل وتجحظ عيناه المحرورتان. بينما يتابع الخمّار خطاه نحو واجهة الزجاجات المغبرة ليهيء شيئاً آخر، وهو يحتسي كأسه المشنن. خلال لحظة خاطفة يمتص الجدار ودوي المحطة صدى صوت رجل الحانة الغريب.

لو كان بالمستطاع جمع الزمن الذي يمضي من رحلة العمر داخل زجاجة، يوماً إثر يوم، حكاية تلو حكاية، على سطح شريط رفيع كالشعرة، لهجر رمزي خير الله خمارة الشارع وصاحبها، وانزوى في بيته المشرف على النهر ينصت كل مساء إلى شريط عمره، يبكي ويضحك ويغني.

حتى أبو ناصيف رفيق أماسي الشتاء المتوحدة والقريرة ما عاد يجيب، لا لأنه لم يسمع، وإنما رمزي خير الله هزمته زوجته، وأنكرته ابنته الوحيدة. كذلك الصديق منهمك في الوجوه الجديدة، يحضّر لها النشوة، كيما تعود في الأيام القادمة وحتى لاتنسى.

حوم بعينيه الكليلتين في الوجوه. بدت له مطمئنة وغائبة،

تشبه محاراً في قاع المحيط، استكان تحت كثافة الماء وشفافيته. وأحس رمزي خير الله أن الأيام كموجات البحر تحتُّ تلك الوجوه الوديعة.

احتسى ربع كأسه الممزوجة، وبيد راعشة مقشورة الجلد وضع الكأس بهدوء فوق الطاولة. ثم تناول بطرف إصبعيه بضع حبات من البزر راح يفصصها.

- أنتَ رجل عاطل وسكير. قالت المرأة ذلك.

وسبح بصره في وجهها الأبيض الشهي، ثم انحدر نحو صدرها الفسيح الغض، منكسراً على حافة شطآن الجسد المتضور الذي تحدى عجزه في ثنايا السنين. «إيه.. يا للمرأة الشرسة. ماعادت تحبني!».

هز رأسه بأسى قديم هزات بطيئة وقال:

- أنتِ مع الدهر عليّ يا امرأة. تغيرت!

قالت المرأة بتشفٍّ ومقت: لم يعد منك نفع. مغارة عتيقة خاوية يسكنها العنكبوت.

وكقرص من فولاذ ينفتل الزمن في جدار الرأس. يتباطأ، ثم يستقيم رمحاً في لون الليالي، ونحو مكان ما من جدار القلب يندفع ويركن. وبصوت مسموع تقهقه ابنته وهي تتناول دفتر وظائفها: ياللعنكبوت المسكين!

يعجب الأم صوت ابنتها، وقدرتها على الإهانة فترفع هي الأخرى ضحكة امرأة نشوى لها عشيق فتي. يسبل رمزي خير الله عينيه المقهورتين، وبيد واهنة يمد يده إلى خاصرته اليسرى ويضغط.

غير أن الزمن يتبدد فقط. يتوافد كموجات المحيط الزرقاء

نحو شواطئ العمر، ثم ينحسر ليتشكل من جديد ماسحاً شطآناً أخرى. ومع الموجات الوافدة المنحسرة، يبني خمار ضفة شارع الصالحية صداقات جديدة تشبه هي الأخرى موجات المحيط. خارج الخمارة تتألق مدينة فتية لاتهرم، عمرها بعمر الزمن، تقهقه لمآسي البشر، تدفن أحزانهم قرب مسراتهم، جذرها ضارب في الأرض ومآذنها رماح مشرعة في هيولى السماء. تسرق الضوء من مقل أحبائها ولاتَهِبُ شيئاً غير الحسرات.

- بعيداً أيها الحزن لاتحتفل بي. ويمصّ رمزي خير الله خمرته المجيدة، يرشفها جرعات مهدئة وعميقة: هجرني الزمن والصحاب. قال رمزي باكتئاب واهٍ.

وتعبر شارع الصاليحة سيارة سوداء لامعة، استرخى في مقعدها الخلفي رجل وامرأة. يتطلع بعض العابرين إلى السيارة ثم يتأوهون بصمت. وتشيل أبصارهم فوق النهر العائم بالأجساد والحسرات الموجعة.

يقول رجل لجاره: مات الدين في مدينتنا. آه لو أن نبياً يظهر!

فيرد الجار: مدينتنا يثرب بخطايا.

وبحذر يدخلان عطفة الرافد الثاني.

على الضفة المقابلة تسير امرأتان بين الحشد وهما تتخطران في عذوبة المساء. نحراهما أملسان وسامقان، والزهو جليٌّ في المشية الأنثوية الواثقة، وهي ترج الكفلين السائبين تحت ثوبين أسبلا برخاوة، تكاد الريح لو هبت ترميهما بغير ماعنف. كانتا تعرفان ما الذي يحدث من الخلف وعلى الرصيف المجاور، فتزدادان ولهاً ودلالاً.

وفوق مدينة دمشق تعلق قمر مضيء، تدلى على شكل نصف رغيف أصهب في بقعة رمادية، وحوله تناثرت غيمات بيض نثرت كمروج الثلج في سهوب السماء المحدبة.

كان الناس يعبرون تحت القمر المنفي حشوداً متوازية ومتصالبة قاربت بعضها بعضاً فوق رصيفي النهر، وفي النفوس نمت أحلام شهوية متشابهة، لكن أحداً لم يكن ليرفع بصره نحو تلك القطعة الفضية المشطورة، والمتلألئة كوجه يوسف الصديق في الأساطير القديمة.

كان البصر معلقاً على النحر والكفل ولم يكن بحاجة لريح، كان هو الريح والرمح وجسر الاغتصاب.

2

على جدار خمارة أبي ناصيف التاريخية أُلصقت مرايا، وفي داخلها بدت وجوه السكارى أقماراً هي الأخرى في طور المحاق.

وبروح النشوة التي تمشي في العروق، كان يحلو لأولئك الذين أهرمهم المحال أن يحدقوا في المرايا خلسة.

مصّ رمزي خير الله ثمالة الكأس ثم نده: أبو ناصيف.. بطحة!

في الخلايا سرت الخمرة نملاً يناوش الأطراف، يسقسق فيها بوداعة ينبوع مطمئن راح يتغلغل بين أذرع الحشائش، ثم يغور في الأرض.

- غوري أيتها الأحزان القديمة. وترتفع عين رمزي خير الله نحو صورة امرأة عارية شهية عُلقت قرب مرآة، فتتسع حدقتاه ويتناوب النظر بين ممر ثدييها المرمريين المغسولين وبين المرآة المجاورة.

- أنت تحمل وجهاً هرماً كوجه الدب! قالت التي كانت زوجته.

وتمتم كسيراً: لماذا تتغير النساء الدمشقيات كالطقس؟

يتأوه متذكراً: نسيت يا فوزية ليالي الفروسية. كيف كنت

أرمح بك. أنت على الشهبا ورائي والبندقية في كتفي والفرس تخب على طريق الست زينب الغباري. الريح تلعب بخصلات الفرس وتداعب خصلات شعرك الشقراء. تدفنين وجهك في ظهري بحنو. فأحس فيك حيّة تنبضين. أحسك لي. آه يا فوزية أيكون زمان الغربة قد حل؟!

- لم تكن تشرب الخمرة كما تشرب الخيول الماء. قالت فوزية بلؤم.

وجاهد رمزي خير الله كي يرفع صوته: بعد أن خانني الزمن والزوجة بقي الخمر وحده الذي لايخون.

اختلجت دمشق في ريح المساء الخفيفة، امرأة تتشح بغلالة زهرية تُمَد نحوها آلاف الأذرع اللهفى، لاتلبث أن تنزلق متوارية كسمكة، تاركة مسيل الوهن ينساب عبر ممرها السري الممسوح بالأضواء ورائحة الفساتين والعطور.

يتحاذى الحشد فتحفّ تنورات الصبايا بأذرع الرجال، وتلامس حقائبهن البيض والسود خصورهم. فينبض وجد محاصر، وتنتشي النسوة الوجِفات لهذه الخيانة وهذا القهر. يتفرع النهر نحو مجاريه الجانبية مبدّداً قوافل تاه تاريخها في سراديب الزمن، غائراً في صحارى الرمل والهجير.

«من سنين حطّ الزمن فوقي وماقام». هجس رمزي خير الله هاجس طفل يتيم وُلد على تخوم الكون بعد انحسار طوفان نوح.

كانت الخمرة التي غارت تنبّ في جدران الرأس الأشيب، حمامة بيضاء تحوم فوق ذرى قاسيون، بعد صباح مشمس أعقب ليلاً ماطراً، تدور وتدور، خفيفة رشيقة ترفعها الريح البليل، فاردة جناحيها في فضاء دمشق الضاوي.

ـ أنت يا مملكة الخمر والخيانة والتغيرات ويا وجع الغرباء متى يعود الطوفان؟

فوق شاشة العمر الذي انهتك، وفي مرايا خمار رافد الصالحية، يعبر الناس ذكوراً رماها القصور النفسي عن بلوغ التواصل. تبحث في ذاكرتها عن ذكرى امرأة مغتصبة، ترشح أيامها المُرّة بطولات تفر مع الريح، ثم تومئ نحو أرض أدمتها الأحداث. إذ ذاك تصرّ قبضاتها فتتوتر تلك الأصابع ثم تضرب بقسوة غطاء الطاولة القذر.

ـ حياتنا قذرة كقاع بردى.

ـ بالدين وحّد النبي قبائل الجاهلية.

ـ هذا عصر الحريم.

ـ نشرب الخمر قصوراً عن خوض الحرب.

وتمتزج الضوضاء. تتشرط النفوس بيقينيات مخمورة. ومن سماء مايسقط نجم ويترمد. وفوق الأرض تقوم الحانات وخيام المهاجرين.

ـ فوزية ماعادت تحبني. لست بطلاً. قالتها دونما حزن.

هؤلاء هم أبطال ليالي المدينة. يستلقون تحت المرايا بين الدخان والضوضاء، يحتسون البؤس وخيبات النساء ثم يرحلون.

بين الحشد يتخطر أبو ناصيف متئداً. بعد برهة يسحب كرسياً إلى مدخل الغرفتين يجلس عليه وهو يمج سيكارته ويتفرج، مائلاً بجثته الهمايونية، ونافثاً الدخان من فتحتي أنفه الهلاليتين. لايريم وجهه اللاحم المخدد ولاغدته المدلاّة فوق نحره.

ـ مرحباً أبو ناصيف!

بإيماءة لمحية خافتة. ينوس رأسه ثم يعود إلى وقاره.

وبغريزة الخمار العتيق في المهنة يدرك ماذا ستجر هذه المرحبا وراءها. فينهض بتثاقل مشمئز. هو الذي يعاف الأحاديث والبطولات الهوائية التي نُقشت منذ ثمانية عشر عاماً على حيطان الخمارة، لافتاتٍ حماسية مكررة ومنسوخة.

ـ نسيت أصدقاءك القدامى. هيه.

ويتمتم في سره وهو ينسحب: كلكم أصدقاء طبق الأصل.

3

كان النهر مايزال يزخر بالسفن البشرية وروائح الشهوات الحارة، وعلى الجانبين أضيئت الحوانيت بالنيون الأبيض والأصفر والزهري. وفي مخزن الزهور راحت نافورات المياه تسحُّ فوق البلور المصقول. فاحت رائحة الورد الملون داخل الأصص فاختلطت بأنفاس البشر، وداخت أعماق محرورة موجعة باغتلام وحشي.

ومن خلال إفغام الخمرة ودوار النفس، تخيل رمزي خير الله رجلاً عريض الجبهة ملفوح الوجه له شفة قرمزية مشقوقة، وعينان نافرتان باتساع حدقي قاس، يشق الزحام في اندفاعة نمر جريح، يضع كفاً عريضة سوداء فوق لوح كتف عارٍ لامرأة شقراء، تعبر الشارع شامخة كشجرة. في اللحم الخمري تغور كفه. تتلفت المرأة بعينين مذعورتين، لكن الكف الأخرى تسحب مِدية حادة النصل. ثم يشرط الثوب المفتوح محدثاً صوتاً سريعاً وخافتاً من مسيل الظهر اللامع حتى منحنى الركبة.

يرمي المِدية وبكلتا يديه يفجُّ الثوب عنها ويلقيه في عرض الشاعر وفوقه يطرح المرأة.

ـ اطعن يا سيدي. اطعن. حرّر وطن المسلوبين.

وتعبر فوزية الشارع مع آلاف المارة، بقامتها الباسقة ونظارتها السوداء، تترك وراءها مواكب البشر، لاتكاد تحسهم وهي تنعطف في الروافد الجانبية المظلمة، تخب خوفاً ورغبة إلى مخدع العشيق.

كانت فوزية تتلفت وهي تجتاز النهر حاملة في حقيبتها بعض زهرات الياسمين الرطب، وخلف أذنيها وصدرها الهليوني الغافي وتحت إبطيها اندغم عطر شهوي بعرق الجسد الملهوف، هناك كانت تتفتح سهول المسرات الضوئية ومنسياً ينام جدار المبكى.

- لأحزانهم فتحوا أقنية داخلية. وفي حانة النهر تصرّف الأحزان.

هنا يلتقي المغتَصِبون والمغتَصَبون. وتتلاحم على حوافي كؤوس العرق البيضاء الهزائم والانتصارات وتحرير الأرض.

كان جد رمزي خير الله من أتقياء الله. رجلاً وقوراً هادئاً، تحدر من عائلة كبيرة كريمة في حي الميدان. سكن الحي زمناً ثم انتقل إلى جوار الست زينب مع زوجاته الثلاث ليشرف على أراضيه التي لاتطالها النيران.

كما كان ذلك الجد متديناً حج إلى بيت الله الحرام، واتصف بالتقوى. اشتهر بتجويد القرآن وكان إماماً. وإلى جانب هذه الصفات الحميدة كان مخصاباً، فقد ولدت له زوجاته الثلاث ثلاثة عشر صبياً بدون بنت، كان الثالث عشر بينهم خير الله والد رمزي. نشأ الأب في إهاب الأسرة نشأة عادية وسط النعم والصلوات، وبعد أن كبر وترعرع أوكل إليه والده الحاج الإشراف على وقف الست زينب إضافة لأراضيه الموروثة.

وكأبيه واظب خير الله على الصوات، حتى صلاة التراويح كان يقيمها بقنوت وخِشية، وفي البيت كان مهاباً وقاسياً.

في السابعة عشرة من عمره زوّجه والده ابنة عمه، وكانت امرأة دميمة الخلقة مشوهة، فوجىء بها ليلة الزفاف. لكنه بعد عامين تزوج من أم رمزي. كانت جميلة شهية تحب المال والثياب، وقد أُشيع عنها فيما بعد أنها خانته مع أحد الفلاحين الوسيمين.

عن هذه الأسرة التي تكاثرت بمضي الزمن تكاثر النمل والأرانب، ورث رمزي خير الله الأراضي والأموال. عاشر فتية المدينة يبذّر عليهم في الحانات، ويخوض معهم المعارك الليلية في سبيل راقصات ومغنيات ملاهي دمشق الرخيصات. وفي حيفا سُجن أيام حرب الإنقاذ وعاد بلا جراح.

وذات يوم استفاق، فإذا هو بلا أرض ولاثروة، يملك كرسياً مثقوباً في حانة أحد روافد شارع الصالحية، وزوجة تخون بحثاً عن عمر يغيب.

كانت حكايته قد انتشرت مئات المرات فوق أذني أبي ناصيف الفلسطيني. استمع إليها في البدء بتأثر، ثم اندغمت فيما بعد مع آلاف الحكايا فصارت طنيناً. ثم راحت تتراكم فوق نفسها على جدار الحانة الراسخة، وفي كل مرة كانت تطعّم ببطولات وسيَر مختلفة، تحولت في نفس رمزي أسطورة هلالية، صدقها بفعل الخدر والاستمرار.

استوى رمزي على كرسيه بعد البطحتين فأحس بعض الثقل في رأسه. فرك جبهته فشعر بالحمامة البيضاء ترحل من سماواته العذبة، ليحل مكانها دوار ورنين كالنحاس.

هاهنا تترنح الأوطان. وتمالك الرجل متعباً وهو ينهض. دس يده في جيبه وفتشها فتعثرت أصابعه بليرات فوزية الملوثات. رماها على الطاولة المنداة بالماء والخمر وذكرياته، ثم ترنح خارجاً من الحانة.

حاذى الرصيف الخافت الضوء. تمايل مرات فاتكأ على جدار

العمارات، ثم توقف ليشعل سيكارة، وتابع حتى احتوته ضوضاء النهر.

كانت القوافل تتشتت. وبين الجماعات الصغيرة انتشرت مسافات. وراح القمر ينحدر وراء قاسيون سقيماً في طور الانطفاء تحت جناحي غمامة برتقالية.

تحت قاسيون قامت دمشق. صخرة قابيل المطمئنة. راحت تشع كحجر من ماس مسحور بدا رمزي خير الله واحداً من شهدائها الحالمين.

مدينة قديمة ممسوسة. تلد الأجيال وتدفنها دون أن تذرف دمعة على أحد. يعبرها الغرباء الحالمون بالغنائم والسبايا، فتروي لهم شهرزاد كل ليلة حكاياتها. ثم تنام آمنة هادئة في كنف قاسيون.

دمشق 1967

الوعل يُقتنص صغيراً

«*في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي. طلبته فما وجدته. إني أقوم وأطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسي. طلبته فما وجدته. وجدني الحرس الطائف في المدينة فقلت أرأيتم من تحبه نفسي*».

«نشيد الإنشاد»

الوعل يُقتنص صغيراً

1

حدث ذلك في مساء ما داخل مدينة تشرف على البحر في الخريف الذي مضى.

قدمتُ المدينة في أعقاب غياب طويل، بعد أن غادرها معظم الأصدقاء القدامى نحو البلاد البعيدة الواقعة خلف الشواطئ والتي حلمنا بها سوية.

كان مساء غريباً لائِنسى، عبق بالروائح والفقد. وكنت هارباً من المدن الكبيرة المزدحمة بالناس والعمارات العالية المخيفة، وفي روحي نما ذلك الحزن الشرقي القديم والشفاف لخلوٍّ أيامي من صديقة.

ربما كان الكثيرون منكم في هذه المدن الشرقية المدهشة، المعمدة بالشمس والغبار يحس ذلك. لكن أولئك الأصدقاء الملعونين الذين عبروا الحدود يبتسمون ساخرين مِنّا: «كيف

أنتم أيّها التعساء يا من تعيشون في الطرف الشرقي لحوض البحر المتوسط؟».

مع صديقاتهم الشقراوات ربما كانوا الآن يجرعون الويسكي، ويخاصرون الفتيات النحيلات في حلبات الرقص بنوسات رومانسية. يثرثرون عن شرقنا البدائي وصحاراه المرملة، عن حكايا شهرزاد وقوافل السبايا البابليات.

لكن الاحتفال ينتهي أخيراً. ذلك مايحدث دائماً. تتبخر الخمرة وترحل قوافل الفتيات نحو مخادع أخرى، فتصبح الشوارع الخافتة المغمورة بالضباب دروب شبان الشرق العائدين.

هاهم يقرعون مربعات الأرصفة ومستطيلاتها الصلبة، بأقدام تعبى، بأحذية لم يُنفض كل غبارها، يخرقون الريح الليلية بوجوه غضّنها السهر، ومن قسماتها لم يُمحَ لفح الشمس.

شيء واحد لايبدو على تلك الوجوه التي ضمرت: العزلة الروحية القاسية وذكرى قامة امرأة شرقية ملفوحة كالوعلة، غنت يوماً، رقصت، ثم تعرَّت ولو في الحلم.

ذلك الصديق القديم المرمي بكآبة على رصيف مدينة بعيدة في الغرب، رجل وحيد ومهجور يشبهني الآن، أنا الضائع الآخر فوق الرصيف المقفر في هذه الساعة المتأخرة من الليل، داخل مدينة ما في الشرق.

هي الآن بين ذراعيه، جسد إغريقي أملس كأصداف البحار، لدن كالإسفنج، بينما أنا هنا أرتفق جدران هذا القصر القديم، ملتمّاً في زاويته كجثة قاءها البحر.

قطة وحيدة وتعيسة تعبر في الظلمة بين الأشجار، تلمع عيناها في الظلال: اغربي من هنا فأنا أكره العيون الخائفة، ابحثي أيتها الفاسقة عن قط أعجف يدفئك في هذه الليلة الخريفية.

ولكن كم هي المساحة التي يشغلها الآن من مروج ذلك الجسد الممدّد في تابوت قدره؟ وماتبقى من عظمة ذلك المهد السماوي، لمن؟

للنمس الصغير الغاباتُ العذراء المترامية تحت مدٍّ النظر. إنما أي أسى مهين يجتاح جسدك الملتهب مختنقاً برغباته وهو لايُعبر؟

هاي. أيتها الأميرة يا من عرشها حجر وتاجها شوك إنني أتشرد الليلة من أجل أحزانك وأحزاني.

أحسُّ لفح الريح الباردة في هذه الزاوية المعتمة، قادمة مع صدى الأغنيات، مع الرقص ورائحة الدم. اختفت الهرة بعد مواء خائف. الخمرة تبخرت كآخر شعاع شمس أفَلَتْ. وهاهو الصداع وصقيع صباحات الخريف يضمّخان جسدي.

أرى الفجر يطلع بعد أن ولى النوم. وفي المدى الشرقي تبدو غيمة مفروشة كبجعة قتيلة على صدر السماء البنفسجي.

الساعة الآن الخامسة صباحاً. يقول الزمن الميكانيكي ربما.

والساعة الآن اليقظة الحقيقية الباردة. يقول الزمن النفسي.

2

كنا نشرب الخمرة ذلك المساء، والسهرة ماتزال في بدايتها. وكعهدي بين الغرباء هاجمني الخوف والتماسك. همس صديقي الشاعر: لاتكتئب.

أجبت: سأحاول.

كان قد مضى ذلك الزمن الطويل لمغادرتي المدينة التي أحببتها يوماً، وأسميتها المحارة المغبرة المنسية على ساحل البحر!

فيها كانت لي ذكريات عذبة ومريرة. وحتى جلوسي قرب طاولة السهرة كنت أتساءل: هل ما أزال أحب هذه المدينة؟

في هذه المدن الصغيرة يخاف الإنسان شيئين: الملل والرقابة.

فعلى نحو ما يبدو الناس قساة ومضطهِدين، إن أحداً منهم يتحول بيديه وقدميه، بصدره ورأسه إلى غابة من العيون اللامعة الشرسة. تلك العيون التي تخترقك كالسهام أحياناً حتى تسقط.

كانت قصائد صديقي ماتزال ترن في رأسي وأنا في طريقي إلى السهرة، منتشرة في سهول النفس غبطة خضراء، سارحة كغيمة تهاجر مع الريح فوق المروج الساحلية الوادعة.

وبديل بومة الملل التي تنعب في بستان القلب المنقبض، تولَّد ذلك الفرح الحيوي من كلمات الشاعر الحزينة.

- إذن أنت لست كئيباً!

هاأنذا أنطلق عبر مدينة عشت فيها زمناً. كان لي فيها أصدقاء رحلوا خلف صبواتهم المتوقدة.

في ذلك المساء كانت الحرب قد انتهت بالنسبة لي، والعالم يبدو جديداً غبَّ معارك الوهم والتحرير. كان الماضي الصبياني يتبدد لتحلَّ محله هذه اليفاعة الجديدة.

ثمة طفل آخر أحسسته يولد في ضلوعي، يعدو فوق سهول القش المحروقة لينبت اخضرار عشبي غضّ تحت قدميه الطريتين.

أحد ما ليس بوده أن يقول شيئاً في الظلال والصمت، وهو وحيد يرفرف الشعر في قلبه، يجتاز شوارع مدينة تنام باكراً. مدينة يغسلها البحر وفوقها يسبح قمر تتسرق أشعته بين كروم الزيتون والبرتقال.

هذه لوحة فقط. تلتقطها المخيلة وتخبئها للذاكرة في كهف سري خاص، لكنك تتشهى بنصف العمر أن تكون فيها امرأة عذبة طويلة، أصابعها ملساء خمرية، وشفتاها في لون الشفق الغارب.

تلك مهمة الذاكرة والمخيلة معاً في البلاد شديدة البؤس، في بلاد الحروب والتراتيل الكثيرة.

كان الناس القساة بعيونهم الصقرية الجائعة قد هجعوا. وأنا أعبر الشوارع خبباً، ملفوحاً بذكرى الأصدقاء القدامى ولياليناالماتعة، بكلمات الشاعر المضمخة بالأسى والموت والأرض، بمخيلتي الفاسقة التي زرعت امرأةً وهمية داخل اللوحة. امرأة ربما وُلِد ألف جيل مثلي ومات قبل أن تولد.

أفي مدن الغبار والصحارى والشموس الحادة ثمة امرأة عذبة؟ وإن وجدت فكيف تكون أيها السادة؟

كانت السهرة قد امتدت قليلاً، ومايزال في نفسي ذلك الإحساس بالتراجع وأنني طارئ. شجعني صديقي الشاعر: هذا بيت أخي. خذ حريتك.

قلت: سوف تقرأ شعراً بالتأكيد؟

ردَّت زوجته: سأقرأ أنا إذا...

قاطعتها: ستغنين.

كانت الطاولة كبيرة، نُقش على غطائها مربعات بيض، وعلى المربعات انتصبت زجاجات الخمرة والكؤوس. رنوت إلى وجه الشاعر، لاح فيه فرح ونشوة وبدت عيناه متوهجتين كنجمة ليل. لقد بدا لي سعيداً في تلك اللحظة كما لم يحدث له خلال سني تعارفنا.

سألني: ألن تعود إلى هنا؟

قلت: لماذا؟

قال: لأننا نحب أن تكون معنا.

داهمني إحساس قُديم عَبَر بين صِلاتي المقطعة. وددت لو أقول: ماعدت أستطيع أن أحب أحداً. غير أنني انحرفت قائلاً: ذكرياتي مريرة هنا، فقدت أحباباً كانوا.

قال: ولكن أنا وحيد في هذه المدينة كما ترى!

صمت. على الجدار المقابل لمحت لوحة طبيعية لجسر وأشجار عارية. وسمعت زوجته تقول: هذا محزن!

مع الرشفات الأولى للبيرة دارت في الرأس أطياف مدينة أحببتها يوم كان الصحاب ملء العين والنفس، ويوم كان لي صديقة قديمة لم تمت، آوي إليها في أمسيات الشتاء. كنا نعبر الشوارع ونحن سكارى. نتحدث عن النساء والزمن والموت، ويومها كنا مانزال في فجرة الفتوّة.

- في بيتك أتذكر؟ تلك الليلة التي شربنا فيها ورقصنا، ثم غزونا الشوارع، وانتثرنا فوق الرمل تحت القمر. وكيف غنى لنا ذلك البائس بالشبابة ثم هرب في الليل مختفياً؟ سألت صديقي:

- بحثت عنه في كل مكان. وأخيراً رأيته على الشاطئ بعيداً عنا في الطرف الأقصى من المدينة، كان يفك أزرار قميصه وعيناه تحدّقان نحو الجزيرة.

قلت: كان ذلك جنوناً رائعاً!

- يود أن يسبح في عز ليل الشتاء. تصوَّر!

- كان سينتحر.

ورفعت زوجة صديقي كأسها: لاتتحدثوا عن التعاسات. دعونا نشرب نخب الأصدقاء القدامى السعداء هذه الليلة.

شربت والشاعر كأسينا جرعة واحدة.

كانت الريح الشرقية تئن في الخارج بحنو موجع، وستارة

النافذة الحمراء تخفق بوهْن تحت أنين الريح، ومن الغرب ترامى هجيج الأمواج مخنوقاً ينكسر على الشاطئ الحصوي المُنار. بدت الغرفة كسفينة صغيرة مغلقة تهاجر في ليل الكآبات والأفراح القديمة فوق مجرات النفس.

وخارج الغرفة، استلقت المدينة مقبرة جاثمة تحت القمر والريح، بين جدران قبورها قام الزنبق البري وأغصان الريحان الذابلة. من هناك كانت الروائح المضوَّعة بالبُخور وأشباح القتلى تدخل روحي مع بقايا أصداء الشعر.

3

حتى اللحظة التي سيغرسُ الله فيها رمحَه في قلبي بلا شفقة، سأظل مذهولاً وأنا أتذكر تلك المرأة الجميلة.

في غمرة تذكراتنا السائحة نبتت تلك الجنية كالرمح فوق أرض الغرفة. كإلهة سقطت من فجوة مغارة، بدا حضورها. كانت في صحبة رجل قميء، وعندما اقتربا كان كل ماقيل من أجل التماسك قد تخلخل. قال الذي معها: مساء الخير.

أما هي فلم تقل شيئاً.

وقلت في سري: ياللشيطان!

كانت ترتدي فستاناً محبوكاً في لون الأرجوان، وبين وجهها الألق والفستان، لاح تجانس مشع.

لم أكن قد شربت كثيراً من الخمرة، لكن المدينة والروائح والشِعر فرّت جميعها إلى مكان ما. انتشر حضورها بقوة ملأت المكان. لم أكن قد شاهدتها يوماً، ومع ذلك تخيلت أنني أعرفها.

بدت بقامتها كأنثى من الوعل الصحراوي الخائف. واثقة أنها

أميرة تملك شيئاً نادراً مهدداً بالسلب. كنت ماأزال محدقاً فيها، وعلى نحو تلقائي ارتمت عيني على فستانها العقيقي، فوق ثديها الأيسر، حيث التصق جيب طرِّزت عليه مرساة سفينة. بدت وصاحبها يعرفان الجميع، لكن وجودي أربكها قليلاً.

أي تعارف احتفالي بيننا لم يحصل. واستمر المساء.

قدَّم صاحب الدعوة كرسيين من الخيزران، فجلستْ كمن تسجد أمام أيقونة في كنيسة. كان الذي يرافقها يتهيأ للجلوس ماسحاً الجميع بنظرة مريبة. قبل أن يتهالك على الكرسي تفحصته. وفي داخلي صاح رفض: أي وجه إبليسي يحمل! كان قدومه هزيلاً كوجهه، وانتابني شعور من النفور والغم. ذلك الوجه كان مهموماً كأرض شققها العطش، وسقط الضوء فوق رأسه الأصلع الخردلي، فلمع كأكرة بوابة مستديرة طُليت بنحاس كامد.

في مدن الرمل والشمس الساطعة ثمة امرأة. ثمة نساء يسطعن كضوء الشمس، ولكن كم هي المسافة؟

وخيل إلي أن الذي رحل من أجله صِحابي المرميون في المدن الغريبة البعيدة يجثم هنا.

كانت المرأة قد انتشرت كالشعاع في الغرفة وفوق المدينة وداخل البحر، طائفة بكل الجزر المخبأة التي نحلم بها ونشتهيها. نَمَتْ كقمر المساء العائم فوقنا، وعلى نحو وجِل أحسسناها تتسرب في ممرات رغائبنا، تطامِنُ الشهوة والوجع.

مرة أخرى رنوت إلى وجه الشاعر. كان قد ازداد تألقاً كدفقة من نار، وراحت عيناه القطيتان تتموجان بالولع والولادة. تصورته يسرقها. يطويها تحت جناحيه ويطير هارباً بها فوق البحار، ينشد لها الشعر ويغني لجسدها الوثني بعيداً عن الناس والمدن الوضيعة.

على بعد سنتمترات وفي مواجهته تماماً استلقت زوجته. سمراء ذات وجه غجري وعينين وحشيتين رائعتين، وبينهما قامت تلك المرأة الصبوح بخصلة شعرها المفردة والمائلة على وجهها.

- غني لنا أم البنين. غني. قال الشاعر.

ورفع كأسه: لم يبق إلا الخمر نشربه يا صحاب. نخب الأيام الحزينة!

شربنا واحتست المرأة من شرفة كأسها المملوءة ثم أعادتها كأنها لم تُمس.

قالت أم البنين: صوتي مبحوح.

وسأل الشاعرُ مرافقَ المرأة: أنت. لماذا لاتشرب؟

رد بمواء خافت: معدتي توجعني.

على الطاولة تحت وجهي كانت سدادة بيرة. تناولتها بين أصابعي وضغطت. كانت قاسية من الصعب أن تُطوى. وراح الراديو يرفع موسيقى بحيرة البجع. تذكرت تلك الباليه الروسية التي حضرتها مؤخراً في موسكو. البجعة البيضاء الغافية في البحيرة وقد تحولت إلى أنثى قبل أن تموت بسهم الصياد.

كيف يتحول البجع إلى نساء على سواحل البحار؟ وبين الصياد العاشق والبجعة الأنثى لماذا يقف أبداً طائر غريب، كريه يشبه الحدأة السوداء؟ تساءلت وأنا أشاهد الباليه.

جميع الأسئلة في الداخل والخارج كانت سخيفة. ثمة الخمر الأبيض والأصفر وسدادة البيرة وشروخ الأيام الباهتة التي مضت.

كان علي أن أشرب بسرعة لأقفز فوق انكسار نظراتي المنحدرة نحو الأسفل، ولأنهي طي السدادة التي تتوجع بين أصابعي.

ناولني الشاعر لفافة. أشعل لنفسه ثم لي. ومن خلل شعاع الثقاب الصغير ترامحت عينانا.

تحت عيني المهمومتين رقَص جسد شرقي بصبا ملفوح، وتمددت عينان ساحليتان غفا فيهما جوع الدهر ومرارة حكايا شهرزاد تحتهما أُتلع عنق مرمري لوعلة تغتسل في الريح وتشرب ندى صباحات الصحارى.

توجست. غببتُ كمهر مذعور من كأسي. طويت قليلاً السدادة، وفي فضاء الغرفة الحائر نفثت الدخان.

ـ سوف أعود. أنشد لنا يا صديقي عن وعول الرمل والسهوب. رجوت الشاعر.

توجع صوته:

«ترى عيناك خابيتان أم نهرا صباباتٍ وأشعار

أسلسلُ فيهما في دفق دفقهما رؤى صحوي وأمطاري،

وينهمران في رملي

ربيعاً أخضرَ الظل.

أحسك تعبرين مداي تفترشين أغواري،

أُحسُك تسكبين الدفقة الخضراء والنبضاتِ في قلبي».

كانت الكلمات تنوح بخفوت مطري لسماء تبكي، وبدا صوته مترامياً يلتقي بريح المساء فيخرق جدران الإسمنت، مولياً شطر البحار صوب سفينة مرساتها ماتزال عالقة تحت الرمل.

هنا موانئ الغرباء. غير أن الذي ينزع المرساة ليس الشاعر المضفور بالكلمات والرؤيا ومرجان البحار!

صفَّقنا بحرارة. وقالت الزوجة: أنت أعظم شاعر في العالم! وقلت: الشعر وليد المواجع.

على حرف الطاولة وقبضتاه تحت صدغه ارتمى رأس الشاعر. انكفأ رأس الزوجة على الحافة المقابلة، وتحت الطاولة بعيداً عن الوجوه تململ وجع قديم لايبوح.

كانا ينتحبان بصمت.

4

تلك المرأة ماتزال هناك. منحرفة إلى يساري على الطرف المقابل. بدت مدهوشة وهي تسمع الشعر. ومن النافذة هبت ريح أقوى لاعبت خصلة الشعر الطويلة ومست تطريز المرساة. وبانتباه خفي مرق خفقان هادئ لثدييها النافرين تحت عيني. تنحنح مرافقُها ثم التصق بها كتمثال من غضار مشوه وقال شيئاً.

تمتمَتْ كلمة لم أسمعها. ونحو وجهها تدافع دم زاد في تورد الوجنتين. ارتعشت وردة مخبأة في شعرها الغابي وهي تدفع برأسها نحو الوراء. ورفع صديقي وجهه. بدا مصاباً. همس لي: أنت لاتعرفها سابقاً؟

نفيت برأسي. فقال: مارأيك؟

كززت على شفتي وضغطت أكثر سدادة البيرة. تناولت كأسي: أنت حزين. دعنا نشرب نخب المنفى!

التفت إلى الآخرين: نخب الكؤوس التي لن تفرغ يا سادة!

بدأت الخمرة تطرد خوفي الملتمّ، والسدادة تتقوس أكثر فأكثر، بينما النظرات النهمة تزداد شراسة.

ـ لكن أنتِ. (كنت أود أن أقول لها: أيها الملاك الساكن) لماذا لاتشربين؟ سيظل كأسك مليئاً مئة عام على هذا النحو.

ابتسمت لأول مرة كقرنفلة تتفتح. وببحة أنثوية راغبة تمتمت: في نهاية المئة عام تشربه أنت!

قلت: بل الآن أود!

رشقتني أحداق لم أرها. شمَّ المرافق رائحة غريبة عبقت في سماء الغرفة. جاء المضيف يحمل صحوناً مُلئت بالعصافير المشوية، راح يوزعها بهدوء احتفالي أمام المدعوين.

قال الزوج المرافق: ياه.. ياللعصافير الرائعة!

وزحف بكرسيه. فأطل بوجهه على أجساد العصافير الصغيرة: رائحتها تزكم الأنف. قال.

قلت مازحاً: أتحب العصافير يا صاح؟

رمقني وبيده عصفور مبتور الرأس، دفعه إلى فمه وراح يهرسه بعظامه تحت أسنانه الصفر الوسخة. التوت نظرة خائفة منها. صدَدَتُها.

وبفمه المحشو هرهر: ومن لايحبها!

- هل تصيد العصافير؟

- لا.

قال الشاعر: يأكلها فقط. إنها تشفي المعدة!

قلت له: سألتك ذلك لأنني صياد.

رد الشاعر: يصيد الأرانب والحجل وأشياء أخرى.

وقالت زوجة صديقي: وربما.. وغزلت عيناها بقية الجملة مرفرفة بجفنيها الأسودين رافعة عنقها الغزالي نحو السقف. ثم ابتسمت.

كان المساء يتقدم سريعاً. وفي مكان مظلم ومستور راحت

صبوة وهمية تزغف كزنبقة على جدار قبر. بدت المسافات تتقلص بسرية مدهشة، وشتات الأيام الكالحة يَلِدُ حلماً أرجوانياً يتكثف أمام العينين، صبوة عصية يمكن النضال من أجلها، وربما العودة.

داخل جميع الرؤوس لعبت الخمرة، وأنا ماأزال أشرب بهوس. نهض الشاعر فأغلق الراديو، صفق كطائر يود أن يقلع وصاح: هوه. غنوا لنا يا يمامات البحر الرائعات.

كان الآن يبدأ الرقص، وزوجته تبتسم بملائكية، وهي تدق على الطاولة بكأسها الحليبي مدندنة أغنية فيروزية موجعة.

فوق الفرح وثبت عيناي مستغلتين نشوة الحضور، وعلى وجه المرأة البابلي، استراحتا.

- أجل غني. أجابت عيناي.

كشراع سفينة تهم بالسفر نهضت. كانت باسمة ومشرقة كأرض تحت المطر، تهادت باطمئنان واثق. جلست على الديوان بين زوجة الشاعر وزوجة أخيه، وعلى حرف الطاولة وكَأت مرفقها. فوق راحة كفها الأيمن استراحت وجنتها، وراحت أناملها تعانق سالفها المزغب. انحسر كمُّها حتى مشارف المرفق، فتمرغت شفتان في لون حب الجميز فوق طراوة اللحم الجليل. لقد استوت الآن كما ينبغي، ورحتُ أرعاها. وكما ينبغي أيضاً رمتني الخمرة في لجّة بحار زرقاء. وفي الطرف المقابل انهمك سليل قرود الغابات يجرش أضلاع العصافير.

عبر شرايين المساء صدح صوت زوجة الشاعر، ولهاً حنوناً غمر كوننا بحزن خفي. كان صوتاً أبحّ مكسور الخاطر، ضاع في سماواتنا كبنفسج انهمر عليه مطر، ومعه تألقت شمس.

راحت تردد مع المرأة الأخرى مقاطع الأغنية بخفر أنثى شرقية تتعرى، وهي تندس تحت الغطاء مديرة وجهها صوب

الجدار. بين النغمات كانت عيناها تطرفان كرفرفة فراشة تتلوى حول الضوء.

لم يكن صوتها يعلو. وبينما المسافات تتقلص، كانت شفتاها الدمويتان ترتعشان. على نحو ما كانتا تنزفان وذلك الرجل السملوق البنية ينحدر مخذولاً نحو الطرف الآخر من العالم. «ناجي إله إسماعيل، أنا مثلك في الجرح، كلانا مولود وفي قلبه سكين. لكن من يفدينا؟». حكى الصمت. الليلة لنا. وهذه المخطوفة من سبايا بابل القديمة، هذه التي عرشها حجر وإكليلها شوك بقية الدهر لك. ترى يا حزينة من يلثم جراحاتك وأية ليالٍ هي لياليك؟

سكر صاحب الدعوة فانطلق يرقص. رحنا نصفق بإيقاع راقص، كان الصقر المحطَّم الجناح في غفلة الصلف القديم يحاول الطيران. ازداد التهاب الشاعر في حلبة الرقص. راح يضرب ويصهل كحصان جموح مقيد، فاتحاً ذراعيه في أجواء الغرفة لهفاً للهجرة. سألني في حمياه: مارأي السيد بمدننا؟

ردت الزوجة: مدن الغبار والرمل!

شالت عينا الوعلة البحريتان فاخترقتا زجاجات الخمر والكؤوس، ماسحةً حضور البشر والمسافات، خجلَ الأتقياء وجميع طقوس التحريم. وتحدَّثتني.

في لحظة هي الدهر في تقاويم النفس المذعورة. النفس وهي تعشق خلال ومضة زمنية خاطفة مدتها البرق، ووزنها النفسي العمرُ والموت، ثم تنطفئ كالشرارة ولاتعود، تعرّينا.

زفرتُ بنشوة فرح الإسراء نحو هذا الجسد الربّاني. ثم جرفت مابكأسي.

- بروحي جميع المدن، جميع الناس. فلنرقص.

جذبني الشاعر إلى حلبة الرقص فاستلمت الوعلة دور الغناء.

تحرّرت من ذلك الكابوس المنشور كظل جرادة جائعة فوق سهل جسدها الأخضر. غادر الحزن الكسير الصامت عينيها الخائفتين، وسحب نداؤها «عطشان يا صبايا». انطلقت أرقص على ندائها فراحت تصفق بينما الصوت ينمو في جسدي وروحي «عطشان والدرب طويل»، وخفق ثدياها. تحت هذا الدوار المجنون تضوأ الوجه الحزين واشتعل. بدت كقمر يحبو من الشرق. نصف جسدها سائب تحت الطاولة ورعشات الفرح تنساب عبر دهور الموت في ذرات ذلك الجسد المقهور.

بجنون رقصْتُ والشاعر دونما ضابط. بدت الأرض تهتز وتدور. كنا نود اختراق الأرض. ورقصت الغرفة بدوار الخمر الذي اجتاحها.

راحت الريح تزداد هبوباً من النافذة الشرقية. في حمّى الرقص لمحتها تفترُّ كطفلة سرقها الفرح. وراح الشاعر يصرخ نداءات أفريقية متوحشة. يقرفص حتى يكاد يلامس الأرض ثم يثب رافعاً قدميه، فارشاً ذراعيه النحيلتين في الفضاء:

«هوه...

تم... تم

أفريقيا نغم».

ثم يدور على عقبيه ويرتفع طاعناً الهواء بقدميه في المساحة الفارغة بين الطاولة ومرآة الجدار. كان يبدو محموماً وهو يتفجر. معه كنت أدور كمهرين في سباق غير متكافئ. ولمع العرق على جبهته البيضاء المغضنة. من عينيه الوديعتين أشرف البصيص على الانطفاء. تحول صوت المرأة نغمة راقصة تخرق الضلوع وتلهب حميا الرقص. بضربات ريفية من أعراس قرانا رحنا ندق الأرض. وتصبب العرق. أحسسته يتفصد من قلبي.

«تفصدي أيتها الأحزان. وأنت أيتها المرأة المنفية مثلي غني أغنية الزمن والموت».

قال الرقص.

بأصابعها البحرية نقرت زوجة الشاعر فوق الطاولة، وراحت قدماها توقعان رقصاً. ترنمت بأغنية تشي برائحة وداع لشاعرها الحبيب. كنا نحيي عرساً ساطعاً ومجنوناً.

اختلج الألم بالعرق بالصبوات الصائحة، وصرخ الشاعر بالمرأة: أنت أيتها الإلهة.. قولي لزوجك الأبله هذا أن يرقص معنا!

وبحركة خاطفة تناول الزوج سكيناً عن الطاولة، رفعها، وبلمحة غرسها في جسد برتقالة أمام الشاعر. اهتزت السكين مرنانة وهي تخترق البرتقالة وتغور، وبأنين خافت لامس رأسها سطح الطاولة، ثم سكنت.

انكسرت عينا المرأة البرّيتان، وأُسبلتا. صدى الصيحة كأنما كان يحرك السكين في الجرح بينما قلبها يتلوى.

وقهقه الشاعر: يا للقدر العشوائي الأبله!

خِفية شال في أعماقي شيء ثقيل. أنهت زوجة الشاعر أغنيتها الفراقية. بدأ الهمود يسري في جسدي وتزايد انصباب العرق. استأنف الشاعر رقصته معلناً أكثر صيحاته الدغلية حتى تفصد العرق من مسامه ناضحاً من قميصه، كأنما لم يحدث شيء، بينما كان ذعر العيون يحوم فوق مقبض السكين.

غمزها سيد لياليها بعينيه المجوّفتين. تمردت بصمت. فجأة أقعيت فوق الكرسي ألهث: «هكذا إذن، انتهت الليلة وكل الليالي».

حسوت كأسي بانكسار. وكأسها مايزال مليئاً. قال قدرها متثائباً: حياة. هيا سنذهب!

أذعنت مقهورة فقامت. دارت بتباطؤ حتى اقتربت مني. مسحَتْ شعرها الأصهب بأصابعها فانحسر الكمّان هذه المرة وضاء زنداها معاً. كانت قامتها الآن أمامي بكل أبهتها الجليلة ولم تكن لي. تحرك القرد الخلاسي قناص السبايا الصغيرات وهو يتأبطها. عادت المسافة تمتد ملايين السنين الضوئية. مرة أخرى تسلقت عيناها. التقتا في السفوح. تمرغ حزن ثم انغمس غائباً في أغنية غنتها ورقصت من أجلها. ونحو العتم غربت تلك الشمس.

«والآن تتبدد السهرة والمدن وكل أفراح العالم الصغيرة!».

على حافة الطاولة وكأت رأسي. سمعت صوت شيء يتهشم. وقعت عيني على قبضة الشاعر ممدودة باتجاهي والأصابع ينزّ من جراحها الدم منقِّطاً الأرض.

- شيء تافه قد حدث يا سادة!

كان يبتسم بمرارة وبوجه رشمته بقع الدم. للحظة لمحته كطيف يهتز، ثم هوى على الأرض.

- أخيراً تمّ القَصد. قلت بسكِينة وخسارة.

حدث ذلك في مساء ما في مدينة ما شرقي البحر الأبيض المتوسط في الخريف الماضي.

طرطوس 1967

الشاهد والجمعة الحزينة

الشاهد والجمعة الحزينة

1

منذ خمسة أيام وأنا في هذه المقبرة. أتوسد بين قبور ثلاثة تحت سماء صيفية، وبين حين وآخر تفغم أنفي رائحة البخور والريحان الذابل.

جئت المقبرة بتوصيات أزلية، كان يلقيها أبي الشيخ علينا في كل مساء: القبور أمان أهل الأرض. هناك لاتجد أثراً للشر. ثم إن الموتى أفضل من الأحياء فهم لايؤذون أحداً.

وكان يقول أيضاً: توكلوا على الله دائماً فهو خير المتوكلين، هو ناصركم في السر والعلن، في الحياة والموت.

ولذا منذ اليوم الأول كنت أسير على قدميّ بين الصخور والأشواك، بين الأحياء الجديدة والأحياء القديمة، متحاشياً الأماكن المكشوفة حتى وصلت.

عبر الطريق رأيت قوافل مسرعة. بشر مذعورون يحملون أمتعة. بعضهم يسير حافياً وبعضهم الآخر لفَّ حتى حوضه أقمشة

حول الذهب الذي يملكه. وفي منعطفات صغيرة ومنفردة كان ثمة أفراد يقفون أو يتمشون ببطء وعلى أكتافهم بنادق.

لم أكن أملك ذهباً ولافضة ولابندقية. قلت لنفسي وأنا أعبر: أحد ما لن يذهب إلى المقبرة بالتأكيد. كان في رأسي دوي لاينقطع لصوت أبي الشيخ.

ـ أسرع. تسير كمن يسير في نومه.

ـ إنهم على الأبواب.

ـ سيقرفصهم الله على تخوم المدينة المقدسة.

ـ إنني خائف.

ـ الله والأمير يحميان المدينة.

وعلى حين غفلة خرجث من ذاكرتي صورة معلّمنا وهو يحاضر عن طاعة أولي الأمر فينا وفساد الرعية ورسالة الراعي. وإذ قال رفيقي: فساد الرعية من فساد الراعي، نقره على رأسه بقضيب رمان غض، أنَّ لوقعه على جلدته الطرية وهمهم ثم صمت.

وفي الباحة قال بغضب: معلمنا دبّ. حمار ابن حمار. وما قاله كذب. وضحكت أنا.

2

مدينة المقاهي والخمارات واللافتات والتماثيل البرونزية، بدت مهجورة كسفينة غادرها بحارتها بعد أن فاجأتهم العاصفة.

ووراء زجاج المقاهي كانت الكراسي وحيدة متقاربة، لكن رائحة الناس كانت فوقها. هنا كان الزمن يمضي، والكلمات أيضاً. منذ نعومة أظفاري وتفتّح براعم وعيي، وأنا أحب اللغة العربية.

لغة إيقاعية مفعمة بالمفردات والتوليد والاشتقاق والمجاز، تشبه محيطاً لانهاية له، وعبر ذلك المحيط كان يسبح ويغوص مئة مليون من البشر الذي يحبون البحر والشمس والثرثرة والصلوات القدسية، ويحبون الحرب أيضاً.

على هذه الكراسي العائمة فوق محيط اللغة، كان العالم يتشكل مفرداتٍ وجملاً وتوليدات واشتقاقات. يُبنى وينهار. تُخاض الحرب وتُعقد معاهدات السلم، يصبح الماركسي رأسمالياً، والاشتراكي بورجوازياً، واليساري يمينياً. تقوم انقلابات وتُشكل حكومات جديدة. وعن هذه الكراسي كان يؤخذ أناس إلى السجون والمنافي، ويخرج مساجين يعبرون من هنا في طريقهم نحو كراسٍ أخرى تستطيع أن تضحك لو طُلب إليها أن تكتب التاريخ.

الآن لاأحد على هذه الكراسي. والآن تبدو اللغة كسيرة الخاطر، سجينة نفوس اكتشفت فجأة أنها كانت ترغي وتزبد لاأكثر.

ـ أسرع... أسرع إنهم قادمون.

ـ سأتوقف هنا وأشعل لفافة.

ـ أسرع. أقول. لقد سبقوك إلى المقبرة.

ـ سأتأمل المدينة الحزينة قليلاً.

ـ انظر وراءك. هاهم. هاهم.

أصرخ متوجعاً: يحميني الله. ألم تقل أنت ذلك؟

ويخمد دوي صوته في رأسي. ثم أتابع منكّس الرأس.

3

كان فراراً كالموج. كصخور تسقط من قمم الجبال. وكنت أحسّها تسقط في قلبي. ماعاد في العالم أرض تشدّ الناس. لابيت

ولانهر. كان صراخ الأعماق التالفة يلوح على الوجوه المتموجة بالحزن والرعب. يظهر في الأقدام الهارعة وهي تنهب الأرض. وفي العيون الخابية الوميض كل شيء كان ينده من داخل: يا رب نفسي.

وعلى سطح سماء ملفعة بالغبار، ورائحة الدم، وسطع الشمس، كتبت كلمة: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا إلى هناك فارُون. خلا أفراد صغار الأجسام كبار النفوس وقّعوا بصمت وثيقة استشهاد وانتحار، كانوا يتحركون حركة الموت. كانت تلك الهناك بعيدة... بعيدة. خلف كل الدروب والأراضي والبيوت والأنهار.

كنت واحداً من أولئك الفارّين. أركض، وامشي، وأقف. وكانت المقبرة بعيدة هي الأخرى.

صوت طارق بن زياد اخترق عاري بكلمات مدرِّس جبان: العدو أمامكم والبحر وراءكم وليس لكم إلا النصر أو الموت.

وارتفع صوته أكثر: كانوا فرساناً يتحدّون الموت. فتحوا الأندلس ودقّت حوافر خيلهم أبواب باريس. هزموا فارس وبيزنطة والصليبيين. هؤلاء هم أجدادكم الفواتح. فافخروا بهم وعيشوا على ذكراهم المجيدة.

فارس. بيزنطة. بواتييه. حطين. القادسية. ذي قار.

وَثَبت أمام ذاكرتي كسجون تاريخية، لاأستطيع كسر قضبانها. كنت داخلها كفأر يلوب ثم يدوخ ثم يسقط.

هكذا كنت أسيراً في لعبة الزمن.

ماضٍ والعدو خلفي، العدو في داخلي، نحو بوابة المقبرة. وتساءلت فجأة: أليس هذا حلماً؟

قال أبي: هذه محنة من الله.

وقال الراديو: اسحقوهم.

وهزني عابر: انت متلكىء.

ولمحتُ خولة بنت الأزور تجمع الضمادات البيضاء.

ـ أنا خارج التاريخ.

وفي الضواحي البعيدة. سمعتُ دوياً لقنبلة رجَّت الشوارع والفضاء. كان التاريخ الكاذب يتصدّع الآن.

4

كانت المقبرة تطل على شارع طويل وعريض، مسورة بحائط حجري يرتفع حوالى مترين، وفي الحائط ثقب يُرى منه قسم من الشارع.

من خلال الثقب بين فينة وأخرى أشاهد وأسأل نفسي: متى يمرون؟

قبل أن أصل المقبرة مررت بالمدينة. طرقاتها وبيوتها وساحاتها العامة، مقاهيها ومساجدها. ومن ثقب ما أطللت على الناس. سألت طفلاً عابراً يبكي: أين أمك؟

ذعر مني وهرب. عرفت أن أمه تُغتصب.

واقتربت من رجل يجهِّز أمتعته ويرميها سريعاً في سيارة فسألته: أين هي الحديقة التي يجلس فيها الأغنياء عند الغروب؟

برَم بوزه عني ومضى إلى مقوده. الحديقة مغلقة. وعبرت امرأة جميلة، عيناها طيلسان أخضر. حاذيتها وتنحنحت.

بهمس قلت: كيف حال غرفة نومك الزهرية التي تبعث الكسل والنعاس معاً؟.

زورتني مشدوهة، أسرعت إلى بيت عشيقها وغابت. كان البيت معداً للغرباء الجدد ومضيت.

سألت الحانوتي وصاحب المقهى ومعشّب الحدائق وسائق الباص وبائع العربة وخطيب المسجد إلى أين يمضون فلم يجبني أحد.

وكانت المدينة تهتز، فمضيت.

سألت قطة تمضغ الفضلات: إلى أين يمضي الناس؟ ماءت رافعة رأسها نحوي، لكنها بقيت قرب الفضلات.

ومضيت أبكي وأغني وأسأل الأرض والحجر:

ـ أيها الحجر الحار أين هو الوطن؟

لمسته. ضغطتُ عليه فدخلتْ حرارته راحةَ كفي، وعليه مرَّغت وجهي المتسائل فأصابتني منه حرارة وأمان.

كان الحجر جزءاً من جدار كبير، موجوداً في مكان ما من هذه المدينة الفارَّة. بدا مقيماً هنا لايتزحزح. وكنا نمضي إلى هناك القصيّة.

وسألت الحجر: لماذا يهرب الناس؟

من ورائه نَدَه صوت: أنت ماذا تفعل هنا؟

بغتة صُوِّبتْ نحو صدغي فوّهة بندقية. ارتعشت رعباً: إنسان هذا أم جني؟

وإذ انتصب أمامي إنسان وبيده سلاح قفز فرح وأمان اجتاحا الأرض ونفسي معاً: هو ذا الوطن!

وعاد يسألني: من أنت؟

ارتجفت: أنا... أنا... ماضٍ إلى المقبرة.

وضحك بقوة. فرحْتُ مرة أخرى وأنا أرى إنساناً يضحك في هذا الوقت بالقرب من وطني.

ـ وماذا ستفعل في المقبرة؟

ـ سأنتظر النهاية.

ـ نهاية ماذا؟

ـ نهاية هذا الذي يحدث.

ـ لماذا؟

وارتبكت. كان في رأسي خمس أو عشر أو عشرون جواباً على هذه اللماذا. توقفت عن الجواب ونظرت إليه هنيهة. كان يلبس ثياباً مختلفة وفي عينيه لمحت الموت والخوف، الحذر والمشيئة. وكان وحيداً. فجأة استجمعت شجاعة قديمة ورميت جملتي:

ـ أنا مطرود.

وراح يوقِّع من خلال الموت والخوف والحذر والمشيئة ضحكة أخرى. أوقف ضحكته وسألني: مطرود من أين؟

قلت: من دائرة التاريخ.

وضحك أيضاً. ناولته لفافة وناولت فمي. وأشعلنا.

سألني: لماذا لاتملك سلاحاً؟

قلت: لاأعرف كيف أستعمل السلاح.

ـ لماذا؟

ـ الله وقيصر والجند يحققون النصر.

ـ من قال لك ذلك؟

ـ أبي ومعلم المدرسة والتاريخ.

واستطردت سائلاً: أنت هل تتقن استعمال السلاح؟

ـ أجل.

ـ و... لكن أنا لماذا لاأتقن ذلك.

ومرة أيضاً ارتجَتِ الأرض بقنبلة تبعتها أخرى وأخرى. وراحت المدينة تتقصف.

5

استمرت الهجرة، واستمر الدوي وبدا أن دماء غزيرة قد سالت وأن الوطن يتلوى بوجع لاحدًّ له.

عرفت ذلك من أولى قوافل الراجعين.

الأيام الأولى مضت في الترقب، وفي محاولات يائسة لسحق الألم، ومرارة الحيرة في أن أكون خارج هذه المقبرة أو داخلها. في اليوم الخامس كنت مازال هنا وراء هذا الثقب اللعين أشاهد وأتألم، أبكي وأغني، وأشم رائحة البخور والريحان الذابل.

الآن أستلقي فوق سطح بلاطة قبر. قرب عيني شاهدته الأمامية وورائي الشاهدة الخلفية وأنا ممدد بينهما، السماء شطيحتي وأنا أحدق من الثقب بالعائدين من الحرب.

يداي مدلّاتان على جانبَي جسد القبر، وإذ أرنو يميناً أو شمالاً، تمتد المقبرة تحت بصري رافعة شواهدها نحو سماء مغبرة ودامية.

من موضعي أرى المهاجرين المتعبين، كما أسمع صوت أنين الأرض تحتي.

من رأس الشارع لمحت بداية القافلة. جندي على كتفه بندقية معلقة يسير مترنحاً، وعندما اقترب قليلاً شاهدت ذقنه الطويلة السوداء وخوذته المموّهة وجفاف العطش المشقّق لشفتيه.

في التقويم الزمني لهذه الأرض مرت أيام عادية لاحصر لها عبر أعوام مضت، لكن هذا اليوم المخضّب لاينسى.

كان يوماً صيفياً من عام انبثق من بين شقوق التاريخ كأنه الحشر. بدا كأن الزمن كله يزحف فوق ظهور البشر ببطء، شبيه وحش أسطوري خرج فجأة من مستنقعات نفوسنا جميعاً.

تتالت ظلال المنسحبين فوق الأرصفة والإسفلت وغبار الأراضي البعيدة. ظلال غرثى، جهمة، مسحوقة الملامح، تتقدم محنية الظهور، مقهورة.

لاح لي مع أشباح العائدين، شبح أبي ومعلم المدرسة، ومدينتنا الرضية أيام السلم: تبيع وتشتري، تتكلم وتتهم، تقيم العمارات، وتحرث بمحاريث خشبية، ويقيم سكانها الصلوات الخمس، نساؤها محجبات، وفتيانها يسكرون ويتحدثون بحرارة عن الديالكتيك التاريخي.

ـ الله وقيصر وجنده من يصنع التاريخ!!

بتشفٍّ جريح صرخت بأبي الشيخ: أين ربك الآن، وأين قيصر؟

كانوا مغبرين، وعِطاشاً، يهرعون نحو صنبور ماء على ناصية الشارع، وكنت أسمع صوت شرقاتهم وغرغرة الماء في حلوقهم الجافة. بعضهم كان يستلقي قرب الماء، وآخرون كانوا يستمرون نحو أماكن مجهولة لايعرفونها. ولم يكن بإمكاني أن أتزحزح.

صلبني الخوف والألم والعجز إلى جسد القبر. تمسكت به أكثر

وخيل إلي أنني كنت أجرح جدرانه وأحفر بأسناني قاعدة شاهدته الأمامية.

مرت عربات الجرحى والشهداء. ولأول مرة ألمح الدم. كما لأول مرة ألعن أبي الشيخ وقيصر والتاريخ ونفسي.

كان الدم نازفاً يبقّع الثياب العسكرية، وقاطرات القتلى المغطّاة تتأرجح بالأجساد التي تعبر الشوارع.

فوق الإسفلت لمحت بقع الدم.

تخيلت خيطاً، خيوطاً ممدودة من حطين حتى...

هل لهذه المعركة اسم. وهل سيدرسها الأطفال في المدارس، ومن هو المعلم الذي سيشرحها. أتراه سيكون مغروراً وحماراً كمعلمنا الذي حكى لنا عن طارق وموسى بن نصير؟

ومع الدم ومواكب المهزومين وجرحى الحرب، فاحت رائحة البخور والريحان، ورائحتي التي أنتنت هنا.

ـ وطني الجريح المقهور ينزف.

كان النزف يمتد فوق خطوط عودة الجند من جميع ثغور المدينة. من الشرق والغرب والشمال والجنوب. لقد بدت المدينة مقبرة خوف وأمان. حفرة يتخثر في باطنها الدم والهلع والقهر.

قضمتُ ظهر الحجر مجرّحاً بياضه بأسناني التي تدمّت. رأيت دمي ينقّط على الحجر الأبيض.

كنت أنزف أنا الآخر، وأنا ملتصق بظهر القبر كحشرة ضالة وقعت خطأ هنا.

داهمني إحساس الوثوب باتجاه الجنود الجرحى لأعانقهم. ألثم جراحهم وأحملهم فوق ظهري نحو بيوتهم البعيدة، علني

أتخلص من الإحساس بالذنب ومن عجزي المطرود وأشارك في شم رائحة وطني الذي يحترق.

عبثاً. وتتالى دوي هائل، شعرت إثره كأن المقبرة قد اقتُلِعت ورُفعت إلى سماوات قصية ثم سقطت في باطن الأرض. كان القبر يغور داخل الأرض في شق انفتح كبوابة الجحيم. وكنت ما أزال على ظهره محمولاً.

وأنا أغور لمحتُ وجه أبي المجعد من أثر السجود، ووجه معلمي الصامت طافيين فوق بحيرة دم. وفي محيط اللغة اللانهائي لم تكن هناك كلمة تقال لتعبّر عما حدث في تلك الأيام الحزينة.

دمشق ـ حزيران 1967

الشموس الساطعة

«إلى غيفارا. الشمس التي هتكت ظلام العجز فينا»

الشموس الساطعة

هنا دمشق. هنا القاهرة. هنا بغداد. بلاغ رقم 78 صادر عن القيادة العامة لقوات العاصفة:

«في يوم 1967/10/4 هاجمت طائرات العدو ومظليوه إحدى قواعدنا في منطقة طوباس، ونشبت معركة ضارية دامت خمس ساعات متواصلة خسر فيها العدو أكثر من مئة قتيل وجريح، واستشهد من رجالنا الفدائي «سيد حجاب» بتفجير عبوة من الديناميت في جسمه بعد نفاد ذخيرته. وقد نتج عن تفجره مقتل عدد آخر من جنود الأعداء الذين كانوا يحاولون أسره».

انتهى البلاغ.

هنا عمان: «في رعاية الله وحفظه يسافر غداً جلالة المليك المعظم إلى بون ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك في نطاق الجولة التي يقوم بها جلالته على عدد من بلدان العالم للتشاور حول الوصول إلى حل سياسي لأزمة الشرق الأوسط».

هنا الراوي: مبارك اسمك العظيم، وجسدكَ الرحماني الذي انتثر، ودمك الذي غار في الأرض ليصعد نسغاً في الشجر، ولقبرك

الضائع، المجد. مبارك ملكوتك أيها الممدد فوق تراب أرضي المحترقة. طوبى لك يا عظيم أمة تموت اليوم لتولد غداً.

1

وسيد حجاب ليس حاكماً ولامليكاً ولاراوياً. اسمه مازن جودت، ولد في الشرق الأوسط من أبوين فقيرين في إحدى المدن أو القرى التي كانت تنتمي فيما قبل لوطن اسمه فلسطين. عاش في دمشق وعمان وبغداد وبيروت والقاهرة، وتنقل عبر جميع المدن التي يحكمها العرب الأشاوس. لكنه كان صامتاً في المدن وحزيناً. وفي هذه المدن كان غريباً كحيوان قطبي.

في خمارات إحدى هذه المدن المحكومة بالقمع لمحْته ذات ليلة.

كنا ثلة من الشباب الطالع على عصر مدهش. فينا حيوية الرجال وغضبهم، كما كنا مفعمين بصبوات رومانسية، وأشياء أخرى غافية في الداخل تجهد كيلا تفصح.

انتحينا زاوية منفردة وطلبنا خمراً. أربعة شباب على ماأذكر: اثنان جاءا من أوروبا وضابط في الجيش والفقير. لحظات من الصمت انتصبت بعدها زجاجة خمر، وطعام، وتوجس خفي لما سيُحكى. في الظل تكور سيد حجاب. وأذكر أيضاً أنها كانت ليلة ماطرة من ليالي تشرين الأول. الشوارع تلمع بانعكاسات الضوء، والمارة منكفئون نحو الأرض يخبُّون الخطا بسرعة، ورقص المطر يشبه زهو عروس تُزف.

ـ لماذا يسرع الناس تحت المطر؟

لمحت سيد حجاب يفتر افترارة أسى. خيل إلي ذلك من خلل أولى إشعاعات الخمر.

رفعنا كؤوسنا: نخب...

فوق جميع الدروب كان البلل، وداخل البيوت الكئيبة انتشرت لروائح الأرجوانية ذات الطعم المر، وعبر سهب النفوس تمدَّد ،جع.

السيارات تجتاز الشوارع هادرة، ساحبة أضواءها المشعشعة نوق الإسفلت اللامع، وداخلنا راحت الخمرة تشعشع هي الأخرى.

ـ ما الذي بقي غير الخمر؟

بعد الرشفات الأولى تخلخل التوجس، وتسلل انكفاء خصوصي عزل سيد حجاب والآخرين بستار من الطمأنينة وخيلاء الثرثرة.

ـ كانت هزيمة قاتلة. قال أحد الأصدقاء القادم من بلاد الغرب.

وبألم وإعجاب ذاتي رشف كأسه. ثم استطرد: لو نفهم حقيقة ماحدث هنا في غيابنا؟

ابتسم الضابط ساخراً: جزء آخر احتُل من أراضينا.

وقال الصديق القادم من الغرب: ولكن لماذا حدث ذلك بهذه البساطة؟

قال الضابط بعفوية مُرة: لأن ذلك قد حدث!

ملامح مازن جودت كانت كالفراغ تماماً. بلا لون ولارائحة ولاطعم. غير أن طريقة امتصاصه للخمرة وزفره الدخان كانت تفضح حياده المقهور. وكزوبعة غبار صحراوي أحس قطار التاريخ يجمح فوق قضبان حياته التي مضت. حياته التي تساوي الصفر.

يوم عبر الأبوان حدود الوطن نحو المنافي، مخلِّفين وراءهما الأرض والذكريات ورائحة زهر الليمون لم يشعر أحد بسيد حجاب

وهو ينمو في بطن أمه. وإذا استقروا على أرض أخرى سمع كثيراً وشاهد. وهاهو الآن عمره بعمر الفجيعة مايني يشاهد ويسمع ولاأحد يعترف بوجوده القائم فوق أرض أخرى.

تتالت الأيام ثم الشهور والسنوات. وأخيراً نما كشوكة منسية في براري البشر الذين لهم علامة.

- أنت أيها المهاجر الحزين ماعلامتك؟ سألت نفسه فيما بعد.

فوق أراضي الغرباء مشى. لم تكن له مدرسة، ولاعرف سقف بيت، وماكانت له عشيقة. وفي لياليه كان ينسج للآلام والجراح راية.

كان مفطوراً على المراقبة والتحدي بسكِينة وهدوء لايعرف عنهما أحد شيئاً كما كان ينفر من الناس الذين عاش بينهم.

- أنت يا غريب لماذا هنا؟ سألوه بعد أن نما.

وفي طفولته سرق تفاح البساتين، وخبز التنور، وخوّض في وحول المخيمات. ضرب أطفالاً خلال اللعب، وبصق على الشرطة السرّية التي داهمت المخيمات بحثاً عن منشورات سرية.

مساء يوم نبر أبوه في وجهه: الآن شببت. كفى عبثاً. ابحثْ عن عمل تعِش منه.

وفي صباح اليوم التالي سألت أمه عنه فلم يجبها أحد، ومع الزمن نسيَته.

الدروب.. الدروب. بحثاً عن نقطة، عن أرض صلبة بعد أن ضاعت الأرض وخيم فوقها غزاة غرباء قدموا من خلف البحار. ومن مكان إلى آخر، من قطار إلى قطار، من مقهى إلى خمارة، من شارع إلى فندق، شرطي الحدود يسألهُ، وقاطع التذاكر، والحارس الليلي، وصاحب الفندق: هويتك؟

وإذ يهزّون رؤوسهم رفضاً، يندهش: أليس للفلسطيني هوية في هذا العصر؟

2

كانت الخمرة تتنامى وأصوات ضجيج المخمورين تعلو، بينما الشتاء في الخارج يسكب دمع السماء على الأرض الملطخة.

ـ في أوروبا كانت التوقعات بأن إسرائيل ستُمحى خلال أربع وعشرين ساعة من خارطة العالم. قال القادم الثاني.

ورد الضابط ساخراً: ولكن العالم فوجئ بأن إسرائيل كان بإمكانها أن تحتل أية عاصمة عربية لو أرادت!

ـ هراء!

وانبرى الآخر: ولكن لماذا توقف القتال؟

أجاب الضابط بحزم: لأن الاستمرار كان انتحاراً.

على سطوح الوجوه نَضَح ألم عاتم. وفي مملكة السلام الخمري ارتعش الغضب.

بدا المناخ هادئاً لكن مافي النفوس كان أبعد من ذلك. كذلك كانت الأيام الستة بعيدة الآن عن هؤلاء المتشحين بالغضب والألم.

ومنذ أيام قلائل خرج مازن جودت من السجن. ضُرِب وعُذّب، ولعنوا أهله، كذلك فلسطينه ومن آواه وأطعمه. ولم يَحتَجّ أو ينبس ببنت شفة. ونحو مدينة أخرى قذفوا به: ابن الزانية نؤويك وتخرج في مظاهرات ضدنا!

حول المعركة التي دارت، وحول دور الشعب فيها، والأخطاء القاتلة، وحول الثورة أيضاً، احتدم الجدل.

كان مازن جودت يسمع جميع مايدور الآن من كلمات. وقبل الآن سمعها في أماكن أخرى. في بيروت سمعها وفي بغداد وفي

القاهرة وفي عمان. النغمات ذاتها والطنين الجحيمي لرجال يعوِّضون قصورهم الذاتي بتفجير الكلمات.

كانت أجيال المقاهي والخمارات والشوارع. أجيال المؤتمرات واللافتات والمقررات العلنية والسرية والبيانات النابضة بالحماسة، الذين ماأحسوا يوماً بعربات الزمن الجامحة، يبنون قصوراً وهمية في إسبانيا.

قال أحدهم: هُزِمنا لأننا لم نكن علميين. هذه معادلة رياضية لاتقبل الجدل.

وقال آخر: ولم يكن للشعب دور في المعركة.

وزفر الضابط: لم تكن هناك وحدة.

استطرد الأول بعد أن تناول جرعة: كان الغرب ضدنا لأننا كنا ضد أنفسنا. كنا نجعجع ونشتم ونهدد بسحق إسرائيل ورميها في البحر. في الغرب سحقت النازية شعباً، ونحن في نظرهم كنا نازيين.

قال الضابط متأففاً: ولكن من هم النازيون الآن؟

مطّ القادم من بلاد الغرب شفتيه استهزاء: الآن... هيه... مرحباً الآن. دائماً نجيء بعد فوات الوقت. إنني أسألك: لو كنا المنتصرين؟

تأوه الضابط محسوراً: ولكن لماذا ندفع نحن ضريبة الاضطهاد النازي لهؤلاء اليهود؟ الغرب هو الغرب ولايريد أن يفهم.

حنِقاً ضرب بقبضته على سطح الطاولة.

3

كان الصديقان قادمين من أواسط أوروبا. ليشاركا في معركة الوطن التي انتهت. من جحيم التهمة كانا هاربين إلى أرض التبكيت

للتعويض عن إحساس الإثم. وفي الطريق بكيا بمرارة على الذين ماتوا في الحرب.

وفي جميع المدن التي عبرها رأى مازن جودت أناساً يهربون ويناقشون، يتهمون ويبكون، لكنه لم يشاهد أحداً يُقتل. وكالحجر ظل صامتاً يرى ويسمع.

توقف المطر وزاد صخب الخمارة. الذين تحلقوا حول طاولة الخمر رشقوا حجارتهم، وراح الاسترخاء يدب في خلاياهم المتعبة.

بفطريته، ومن خلال حوادث التاريخ والمشاهدات اليومية الصامتة أدرك سيد حجاب لعبة القناعات الخاصة، وتوالُد التبريرات في النفوس المطمئنة العاجزة عن فعل شيء حاسم فيما أسموه: الظروف الموضوعية السيئة.

بغداد سقطت، ثم فلسطين. ثم... وتشتت العرب. هاهم في الشمال والجنوب والشرق والغرب يهوون تحت ضربات التتار الجدد. والقادمون من أوروبا كالجاثمين هنا، يتهاوون مع الدهر. وفي المؤسسات والخمارات والمقاهي وفوق الأرصفة يكابرون: نحن نصنع الدهر!

غير أن مدن العرب وذكرياتهم وتاريخهم تبدو اليوم عالماً من الخراب، محشواً بهشيم اندلعت فيه النار. وكثيراً ما خيل لسيد حجاب أن ناس هذه المدن ليسوا أكثر من كذبة تاريخية تحبو في ليل كثيف العتم.

في كل مكان كان الدوار الأبله. المهزومون يدورون حول أنفسهم وحول تاريخهم داخل غرف من زجاج وحجر، محاولين عبثاً الخروج من لفيح النار المقترب: لو تنجو المدن من اللفح؟!

ـ لكن الثورات مامبررها؟

وإذ توشك المدنُ أن تحترق، أجيال الخمارات والشوارع والمكاتب النظيفة والمنازل المرتبة والمريحة، تنشر قناعات وهمية بأن الحريق بعيد.

منفرداً يدرك سيد حجاب أن النار في الداخل. في النفوس الخامدة فتلتمع طوباس في نفسه متألقة كبرق خاطف: هناك هويتك!

ـ ما للسيد الصامت لايحكي؟

أجاب الفقير كسِيفاً: ماالحل؟

قليل من الخمر رشفتْه شفاه السادة، وفي الأعماق توالدت أجوبة رفدت بحور الكلمات. واستمر الحزن والوجع غافيين تحت رماد الحرائق. استطردتُ: هل فكر أحد منا أن يفعل شيئاً؟

وبعيداً عن الخمارات وحوارات العقم، لاحت المدينة الرازحة تحت أحذية الغزاة منارة تتوهج وتتحدى. كان برق الإنقاذ في الليل العربي المخيم من محيط الشمس إلى خليجها هو المزيد من الدم يروي الأرض ليعيد لها خصوبتها. مزيد منه يردّ الحرائق.

ـ اشربوا أكثر نخب الأمان والظروف الموضوعية.

المدينة الخمرية لمّا تحترق بعد. وفي سره صاح سيد حجاب: لو تحترق. لو كل المدن المطمئنة في مشارق هذه الأرض ومغاربها تحترق هي الأخرى. لو...

4

من العالم، ومن حياته، ومن جيرانه السعداء، ومن تلك (اللو) القاصرة، سَخِر سيد حجاب وهو يشعل الفتيل طائراً نحو الجنود المتحفزين لاصطياده.

مرة أخرى وهو يقترب من مجد الموت انطلق قطار حياته جامحاً كشرارة. منذ عشرين عاماً اقتُلع جذره. وضرب في الآفاق تحت كل سماء. كان غريباً كالوحش. ولم تكن له شمس. اغتصبوا أرضه وصبايا وطنه. وعلى جميع الدروب التي عبر لاحقته سياط الازدراء.

- للناس وطن وأنا لاوطن لي. للناس شجر وشجري منهوب.

سنوات المطاردة والعسف. ثم الخطوات. اجتاز حدوداً. دخل زنزانات وخرج. وكجميع الناس حاول أن يعمل في المعامل والحقول وفي المطاعم والمقاهي فقيل له: من أنت؟ عدْ إلى بلادك.

وكما تجوع الذئاب، جاع. غطته سماوات لاتعرف الشفقة، وعرفته الخمارات والمواخير والأرصفة السوداء. وفي كل مكان كانت التهمة تشيل أمام عينيه كعمود من دخان.

كان فتياً كعاصفة عندما أنكره أهله، وجرجر خطاه فوق أرصفة العالم شبيه كلب جرب مطرود.

لكنه كالعاصفة انفجر وتطهَّر أخيراً. بعيداً عن مدن الكلمات والحكايا الأفيونية الخائفة التي لم تنفجر هي الأخرى.

- متى تنفجر هذه المدن اللعينة وتتطاير شظايا؟

5

- ما الحل؟ أنت تسأل.

- أجل ما الحل؟

- الحل أن نقاتل حتى الموت! أصلاً كان من الغباء أن يوقَف إطلاق النار. قال الصديق المتحمس جداً.

قلت: رائع. ثمة سلاح أتلتحق بالمقاومة؟

هرهر الآخر: هذا هراء. القضية أبعد من ذلك. ماذا يستطيع الفرد أن يفعل؟ وأكمل: اتركونا من الانفعالات المراهقة ولنفكر جدياً بالشعب والثورة.

وصمت الأول.

مئة مليون عربي هُزموا بمليوني صهيوني. ومئة مليون كان كل واحد منهم قائداً ومفكراً ونبياً زمن السلم. وإذ أضاء سيد حجاب بجسده شمساً ساطعة، وهوى فدائياً متميزاً وسط الضجيج ودوي التبريرات والثرثرة، والإقعاء اليومي لم يقل شيئاً زمن الحرب. لقد حمى رفاقه المنسحبين بعد المعركة برشاشه حتى خلا من الرصاص، وإذ تقدم جنود العدو منه فاجأهم كالصاعقة بانفعاله المراهق وفتوته المحشوة بالديناميت، فبدّدهم.

ـ ماذا يستطيع الفرد الخلّاق أن يفعل أكثر من ذلك في زمن الاغتصاب؟

ـ نخب الامتيازات أيها السادة الخلّاقون جداً.

6

كانت الخمرة قد تمددت بمجدها السروري في خلايا الرأس، وراحت أجساد السكارى تتمايل بوهن، خارجةً من بوابة الخمارة إلى الليل الممطر.

سرينا في الشوارع كجرذان هرمة، تحت قمر فضي نبق فجأة من خلل الغيم الراكض عبر سهول السماء. كانت الأبنية مبللة راشحة. وسكِينةٌ حالمة تعانق المدينة. وبعيداً جداً عنا كان سيد حجاب الآن.

تساءل أحدهم أسِفاً: أليس حراماً أن تُحتل هذه المدينة العذبة؟

ران صمت إلا من الخطوات التعبى. وأشعل أحدهم لفافة زفر دخانها بحرقة في الفضاء الأصم.

ـ لماذا مات سيد حجاب؟

أكان ينبغي أن يُضرب كل بيت، وتفقد كل أسرة إنساناً، لتنفجر المدن الرخية التي تبدأ السكر والنسيان منذ الغروب؟

ومن عالمه لم يكن يملك شيئاً سوى حياته التي لاتساويه ولاتساوي عصره النذل. كان مُداناً لأنه عربي، وكل ماضيه كان كهذا الغبار الموحل تحت مطر الخريف. سمع أنه من خير أمة أُخرجت للناس، وطاولت سماءه أصداء الثورات، لكنه كان يسمع شتيمته في الصباحات والليالي، وفي جميع الطرق والساحات: أيها الفلسطيني الغريب اللاجىء.

وهاهي ذي الأرض المضروبة بحوافر الخنا، تطل من عيون الذين ماتوا في الضحى وماكُفّنوا، تطل من الدروب المحاصرة وموّق الماضي الملوث، وأفواج الهائمين السكارى بالخمر وحروب الكلمات.

ـ أليس حراماً أن تُحتل هذه المدينة المجللة بالخضرة والخمر والنساء والمطر المنهمر؟

ذلك كان ختام الجهاد الأكبر لنفوس تبوح في الأمسيات بأشجانها للأشياء، تواسي بها جراحها الخفية. وخارج المدينة كانت أفواه أخرى تنوح مشرعة جهادها واستجداءها. تطلب النجدة وفرق الإطفاء لإخماد الحريق الذي اندلع جحيماً فوق أرض العرب، بينما كانت ملايين العربان تحيي ليالي عاشوراء الدامية.

ـ فلسطيني أنت ولست عربياً يا مازن جودت!

ومن بعيد كانت تدوي أصداء المقاومة، تطل هي الأخرى

محمولة داخل توابيت الحبر الملطّخ بالأفيون، وإذ نشم الروائح تسري الطمأنينة والسكينة فينا. كانوا يقاتلون ويُقتلون عنا.

مازلنا في شوارع عامرة بالنيون والصمت نعوم ونترنح. فوق أكياس رمل عتيقة منزوعة الأحشاء، عبرنا. لمحنا مايشبه الخنادق التي حُفِر نصفها ثم أُهملت وتُركت منقوعة تحت الشمس والنيون. قرأنا داخل لوحات مضاءة بالنور الساطع:

«بإعجاب نحيي نضال المقاومة في الأرض المحتلة».

وقرأ مازن جودت على شاشة الهدوء الليلي الكاذب: هذا نضال المدن التي تنتظر الحريق القادم.

قال أحدنا: العرب هم (الماش). وامتعض الثاني: هراء. نحن متخاذلون. أستاذ لو يُعطى الشعب دوراً يصنع المعجزات.

تنهد الضابط بمرارة: آه.. لو لدينا طائرات متفوقة!

7

- أنت فلسطيني يامازن جودت. كن عبرانياً ما الفرق؟!

وتذكر الذين مزق أحشاءهم العطش، وسلخ جلودهم حريق الشمس والقذائف. الذين تاهوا فوق سيناء والجولان وماوصلوا. الخونة أيضاً تذكرهم، والحكام والجنرالات واللامبالين وعبيد الامتيازات، ثم الجبناء. هؤلاء لماذا لم يُقتلوا؟ أكان ينبغي لوطن النسيان والرسوخ وعلم الكلام أن يُغطى بالدم من محيطه إلى خليجه ليفيق من كهفيته الدهرية؟

- لو كل رجل يحتسي دم ابنه. لو كل امرأة تأكل ثدي ابنتها المقطوع. لو السماء تمطر دماً وقتلى!

وإذ قال له القائد: انسَ اسمك القديم. منذ الآن أنت «سيد

حجاب». أتعلم معنى كلمة فدائي؟ لم يعرف أكثر من أنه سيقتُل أو يُقتل. وصمت.

قال القائد للفدائي الجديد: الفدائي قتيل حي. زمنه قصير ويحيا مع المصادفة في أي منعطف. في دمه يحمل المستقبل، لاأم له ولاابن ولازوجة. حيوان بري، لحافه كل سماء، وأرضه جميع الأراضي الموبوءة بالعبرانيين القتلة. يبحث عنهم بحذر وتصميم، وبيده رشاش وقنبلة. دمه مباح وقلبه من حجر لايلين. الفدائي ياسيد حجاب لايعرف الفرح ولامسرات الأرض إلا وهو يضرب من أجل العَجَزة والمضطهَدين والمشرّدين على هذه الأرض. خذ هذا الرشاش وهذه العبوات والقنابل. إذا وقعت وبُحت ستموت. فيما بعد تأتيك الأوامر. وإذ تسلمها لم ينبس.

وفيما بعد أصدر سيد حجاب لنفسه أوامر إدارية. صدع لها فسقطت في قاع حياته وشوشاتُ المقاهي والخمارات وثرثرات أوصياء التاريخ. تخطى بأوامره الداخلية التي خرجت من رأسه لتبذر كالحَبّ في أرض القتل، حياة كانت خسيسة، حياة ملايين تبرر وتحلم تحت شموس من مذلة وعار. مضى مخلفاً وراءه مدن الطاعون والامتياز.

8

مررنا بحارس كان يشخر داخل مخفره الخشبي. وعبرتنا سيارة يقهقه فيها رجل وامرأة. اجتزنا موكب مراهقين تقيأتهم أحشاء أقبية ناعسة، راحوا يرقصون فوق الأرصفة، وللريح يرمون ضحكات أنثوية ساخرة.

- ساوى اللقيط نفسه الآن.

بينما تابع الأبناء الشرعيون سيرهم مخدّرين نحو بيوت

آبائهم، تحت سماء راحت تصحو. بعد لحظات سيناموت في ممالك مسراتهم المموَّجة بالفرح والنساء وأحلام التأنيب. يرون الطير الأبابيل تسقط حجارتها على أبناء داوود اللقطاء، فيغفون.

طفل في لون الأرض والشقائق ولون نفسه، ينام الآن، خارج ممالك الفرح والأحلام، في هدوء وشفاعة على الأرض التي استحقها بعد أن عمَّدها بدمه، وفوق نثار جسده تمدد غصن برتقال، قطفه أحد رفاقه من شجرة فلسطينية مجاورة.

الظلال، والماء، ثم المجد للذين ماتوا. للذين تاهوا فوق الصحارى ولم يصِلوا.

دمشق 1968

كابوس في نهار قائظ

«إلى جنود تل الفخار الفقراء الذين استُشهدوا والذين أُسروا والذين ظلوا أحياء».

كابوس في نهار قائظ

1

استيقظ ساهم الناجي صباح يوم باكر مذعوراً من حلم رآه. رفرف جفنيه فرأى جسده مايزال في الفراش، ورنا إلى سقف الغرفة فشاهده لم يتزحزح من مكانه.

من خارج الغرفة جاءته أصوات الباعة مختلطة بنباح كلاب الحي وهدير الباصات وأصوات المؤذنين.

ـ هي الدنيا بخير إذن. ياللأحلام المزعجة! قال ساهم الناجي في نفسه.

انسل في الفراش باسترخاء تعِب، وجسد افتقد الراحة والدفء مذ قرر أن يصبح جندياً.

كان الضوء يتسرق من خَصاص النافذة المطلة على جبل أجرد، وساعة الغرفة تدق. تململ ساهم الناجي ناشداً غفوة. حشر رأسه تحت الوسادة بعيداً عن الضوء ودقات الزمن، وراحت أنامله

تدب بيسر بحثاً عن بقعة باردة يريح فوقها كفيه. كان ينام منبطحاً الآن.

2

بدأت أشباح الأرتال المتوحشة تقترب تحت سماء ناصعة كبحر صيفي، مخدِّدة سطح الأرض بسنابكها الفولاذية. وإذ رآها قائد الفصيلة الثالثة تجتاح الأرض بهجومها المخيف، قرر أن يتراجع.

حزم أمره وأمر فصيلته ثم انسحب.

كان الخندق ملتوياً يشكل خطاً منكسراً، توضعت فيه ثلاث فصائل تشرف من السفح الأجرد على السهول المنبسطة.

وتحت السفح بدت البحيرة القديمة وقد تحولت إلى مسابح وأحواض للسمك، وحول هذه الأحواض قامت المستعمرات الجديدة بين غياض الشجر ومروج العشب. كانت تبدو نضرة ومؤلمة في أزمنة الصحو.

وفي أزمنة الصحو أيضاً كان المزارعون الغرباء يتيهون ببنادقهم ومعاولهم فوق المروج الخضر، كذلك كانت صبايا الغزاة الشقراوات يتمايسن شبه عرايا تحت حراسة الجند.

ساهم الناجي رآهن بعينيه عشرات المرات يقهقهن ويتراشقن بالماء، وفجأة كالسمك يقمسن في مياه المسابح اللامعة تحت أشعة الشمس.

وإذ اجتازت الأرتال الوحشية خط الحدود، استنفر قائد الفصيلة الثانية خوفه: ونحن مضطرون للتراجع أيضاً.

جمع بقايا نفسه وأهاب بجنده إلى الانسحاب. وانسحبوا!

من خلال عدسة منظار المرصد، كان يرى ساهم الناجي صبية شقراء مبتلة تخرج من الماء ثم تثب فوق عشب الأرض وثبات مجنونة بالفرح، تنفض شعرها في الفضاء الصحو ثم تنحني ماسحة قطرات الماء عن فخذيها الناصعين، وفجأة تنطرح منتشية فوق الأرض المخضرة.

بحزن وتوجس رأى قائد الفصيلة الأولى عملية الانسحاب من الخندق، كما كان يرى جيداً كيف تتقدم الأرتال.

وتمتم ساهم الناجي من خلف عدسة المنظار: أولاد الزانية يتبخترون فوقها وكأنها أرضهم!

من الصبيّة الشقراء اقترب جندي مسلح. فتى لم يتجاوز العشرين، ذهبي الشعر وفي مشيته دلال أنثوي.

تقدم حتى حجب بجسده معظم جسد الصبيّة بينما ظهر القسم السفلي من ساقيها ممدداً فوق اخضرار العشب. تحدثا ملياً وضحكا، وإذ نهضت طوقها الفتى بذراعه اليمنى وراحا يخطران نحو أجمة مجاورة.

هزّ ساهم الناجي رأسه بامتعاض وألم: لم يبق إلا هذا!

وراء السهل الفسيح قامت هضاب شُقَّ في وسطها طريق كانت تربته الغضارية تشي به. من هناك كانت الأرتال تتقدم موجات إثر موجات ثم لاتلبث أن تنحدر نحو السهل محاذرة الأحواض والمسابح.

صرخ قائد الفصيلة الأولى بجنوده كي يجتمعوا. التفّوا حوله فلمح في سيمائهم خوفاً وطيوف تصميم قديم، وتوقعات مخبأة.

ـ تعرفون وتذكرون جيداً كم من الأعوام مرت حتى حانت هذه اللحظة. لقد رأيتموهم في الصباحات والضحى والأماسي يزرعون الأرض وينامون مع النساء فوق عشبها الأخضر. عشرون عاماً وأنتم تنتظرون وهاهم يتقدمون نحوكم الآن. قبل قليل انسحب

رفاقنا فمن أراد اللحاق بهم له ملء الحرية. انظروا إلى أرتالهم بعد أن اخترقت الحدود. إنهم يريدون هذه الأرض. من أجل لحظة حاسمة كهذه دربتكم وهاهو اختبارنا جميعاً يجيء: الشهادة أو الهزيمة. قد لانكون أبطالاً أسطوريين لكن المقاتل الحقيقي لايرتضي عار الهزيمة. ولو انسحبتم جميعاً فأنا باقٍ هنا.

تحلل الخوف في مجرات النفوس ثم غاب. وتسارع الدم حاراً في العروق حاملاً معه بشائر تصميم راحت تنتشر كالرايات فوق الوجوه الصامتة.

ـ معاً حفرنا هذا الخندق منذ أعوام. يبس ترابه ونحن ننتظر. الآن انتهى الانتظار فإما نُقبر فيه وإما نعمِّد ترابه بدمنا. وانحنى نحو الأرض غارفاً بيده حفنة تراب، فردها على راحة كفه ثم مدَّ زنده باتجاه الجند: هذا ترابنا وإذ لانحميه بالدم لسنا جديرين به.

انتضى حربته البيضاء المستقيمة. غرسها في راحة كفه حتى نز الدم نحو حفنة التراب فامتزج بها.

كان الجنود يتملون المشهد بانفعال ظاهر وهم صامتون.

وإذ توقف النزف عجن القائد الترابَ بالدم ورمى به إلى الخندق.

ـ ماذا قلتم؟

بحماسة جاهلية صرخ الجنود صوتاً واحداً: نموت ولانتراجع.

3

رأى ساهم الناجي فيما مضى كيف كان الجندي وشقراؤه يطآن العشب متسارعين نحو أجمة الصنوبر كما رآه يقبلها.

واختفيا. سحج ساهم الناجي أسنانه باشمئزاز وبصق.

كان هدير الأرتال يعلو خارقاً الفضاء والآذان، كذلك كان الغبار. وراح الزرع النامي يتمزق تحت الجنازير الفولاذية.

وزع قائد الفصيلة الأولى جنوده إلى جماعات متباعدة بحيث تحتل معظم خندق السرية عدا الأطراف. وبعد أن أعطى مهمة القتال لقادة الجماعة أهاب بالفصيلة: قتال حتى الموت. هاه. هذا يومكم ياشجعان العرب. أعداؤكم جبناء لاتخافوهم. سنبدّدهم.

شعر أنه يدفع الرعب عن نفسه بكلمات تولد بينما الموت يتقدم. وتذكر أنه لم يكن بطلاً خلال سني حياته كما لم يَخض معركة ولانال وساماً لكن هذه اللحظة المدهشة رمَته ورفاقه الجنود فجأة في مدار البطولة.

وهجس بعفوية: ولكن هل الموت بطولة؟

أي موت؟ إن أحداً لايلقي على نفسه أسئلة في المعركة.

وإذ اخترق الزمن ذاكرته: الطفولة البائسة وأيام الرعي واصطياد عصافير التين. صبايا العين والعتابا وضوء القمر، تذكر كلمات قائده في حفلة التخرج: كن وحشاً مع العدو وإنساناً مع جنودك. ومع جنده كان يلعب ويمزح. ومع الزمن أحبوه.

وقال ساهم الناجي لنفسه وهو يرى الفتى والصبيّة عائدين: لابد أن نتقابل يوماً ياحلّوف.

وترك عدسة المنظار.

اقتربوا أكثر. وفي المدرسة والكلية والمعسكر والجبهة، كانت الكلمات تُرمى بنبرة ملحمية ذات إيقاع تراجيدي، ساهم الناجي كان يسمعها في أزمنة الصحو الأولى. لكنها فيما بعد اكتسبت إيقاعاً ميلودرامياً. اندغمت بفعلها الطنيني ثم سافرت نحو جزرها الخاصة البعيدة.

ـ الجدوى أن نفعل شيئاً له دوي في الأزمنة العَكِرة.

وإذ تذكر توقه لكسر أسيجة الحدود والتوغل في أرضه المحتلة للقيام بعمل حاسم له دوي، أخذت الأرتال تشكيلة القتال.

ـ لن يطلق أحد رصاصة قبل إعطاء الأوامر.

وسرى الأمر عبر الخندق إلى قادة الجماعات والجنود فصدعوا له.

كانت الرعشات الأولى قد بدأت تتحول من خاصيتها الخائفة إلى تركيب جديد مغاير. في النفس كان المخبر وعملية التحليل والتركيب تتم بسرعة مدهشة مع تقدم الأرتال.

وواضحاً بدا الآن أن الفصيلة الأولى من السرية الثالثة من الكتيبة الثامنة والثلاثين التابعة للواء الثامن عشر، ستصمد في وجه لواء الدبابات للعدو المهاجم.

كان الخندق يتوهج بوحشية، والردى يزهر حياة. ورماح صحراوية من عصر قديم لاتخاف الموت والهجير تطلع فجأة من صدر الصحراء لتحمي القبيلة المندحرة. وتحت شمس حزيران المائلة نحو الغروب بدت الهزيمة في خندق ساهم الناجي ورفاقه، تلِد مقاومة أسطع من الشمس.

واختلطت الأشياء. الأصوات والغبار والتاريخ الشخصي للرجال الذين صمدوا والذين فرُّوا بلا معارك.

أربع دبابات كانت تقترب الآن على بعد أمتار من خندق التل وجاء الأمر: نار.

واحدة تلو الأخرى احترقت وتصاعد منها دخان. وتقدمت أربع أخرى فاحترقت ثم تفجرت شظاياها في الفضاء.

صاح القائد بزهو: النصر لكم يا بواسل فلا تهِنوا.

ثماني دبابات أخذت تشكيلة قتال على شكل مروحة تبغي تطويق الخندق، راحت تتقدم بسرعةٍ جنونية. ولم يهِن الجنود. أورق النصر في نفوسهم صموداً صلباً لامثيل له.

وانطلقت قذائفهم. ولم يصدق الجنود الحرائق التي اشتعلت. لقد دحروا سرية الدبابات المتقدمة.

وصاح بهم: كيف عزيمتكم يا رجال؟

ـ حديد. ارتفعت أصوات النصر من قلب خندق ساهم الناجي.

بدا أن العدو قد أُصيب بالذهول والذعر. وفي لحظة همدت حركة الدبابات في قاعدة السفح.

من الخندق تحرك قائد الفصيلة يتفقد جنوده. كان هناك جريحان أشرف على تضميد جراحهما ونقلهما إلى المرصد.

ـ ستأتي الطائرات مرة أخرى. طائراتهم لاتصيب. سنسحقهم.

وما كاد يعود إلى موقع وسط الفصيلة حتى ظهر سرب ميراج من الغرب راعداً، جامحاً لينقضّ باتجاه التل.

قبل بدء الهجوم المدرَّع، ظلت أسراب الميراج والميستر تقصف من الفجر حتى الظهيرة، ولم تُصِبْ إلا أهدافاً نادرة.

قُصفت الجبهة على امتداد مئات الكيلومترات، وتوغلت صوب المدن فضربت المطارات والمنشآت وأصابت بعض المنازل الآمنة. في البدء ولّدت ذعراً نفسياً لايوصف، جمّد الجنود في خنادقهم، والأطفال والنساء والمدنيين داخل الملاجىء. وفيما بعد انكشفت اللعبة الساخرة. وصرخ الأطفال في الشوارع بهزء: الغربان السود لاتصيب.

ها... ها...

بوحشية وحقد انقضت الطائرات على الخندق. ضربته بالصواريخ ثم بالرشاشات وابتعدت قليلاً لتنقض مرة أخرى، ثم غابت. وعادت فقصفته أيضاً. خلال ساعة من الزمن ضُرب خندق ساهم الناجي بصواريخ وقنابل ورشاشات الميراج من الأمام والخلف والجانبين. لقد أفرغت حقد تاريخ عمره أكثر من عشرين عاماً فوق فصيلة لايتجاوز عدد رجالها الثلاثين.

وصاح ساهم ناجي صيحة أطفال شوارع المدن التي ضُربت: الميراج لاتصيب.

وتحركت المدرعات الآن. ماتبقى من اللواء هدر صاعداً السفح بعد أن دَمّر الخندق ليخرق الجبهة.

ولأول مرة رأى جنود الفصيلة الأولى أعداءهم يتقدمون راجلين خلف الدبابات لتطهير الخندق.

- دعوهم يقتربون أكثر.

بين الخندق الأسطوري الثابت، وحركة الآليات العدوّة الهادرة تقدم الموت. تمدد ثم تقلص كنابض يُضغط من طرف واحد رويداً رويداً، وإذ وصل مشارف الثبات والمقاومة انفلت بفوضاه الفجائعية وصادماً وخارقاً سمع السهول والهضاب.

- نار بجميع الأسلحة.

وانصب جحيم.

ورأوهم يسقطون. يثبون إلى الأعلى ويسقطون. فوق أرض ليست لهم سمعوا صراخهم الموتي الفاجع. كانوا هناك يموتون كما ينبغي بين الغبار والشمس.

أحس القائد بداية نفاد الذخيرة فأمر أربعة من الجنود أن

يأتوا بصناديق الذخيرة من الخلف. كان ذلك خطأ عفوياً ارتُكب في غمرة الهجوم والثبات والهزيمة أن يُنسى احتياطي الذخيرة بعيداً.

من الأربعة عاد اثنان بصندوقين ووزعت الذخيرة داخل الخندق واستمر الجحيم.

كان الانسحاب خلف الخندق وعلى امتداد الجبهة يتم كيفياً. الضباط وضباط الصف والجنود والمدنيون. وكانت الحيوانات مع البشر قد هامت على وجوهها في البراري الجرداء بعد هجوم الطائرات المغيرة التي لاتصيب.

وفي الجنوب والشرق تحطمت الجبهات المساندة بالمفاجأة، وهام الجنود المنهزمون فوق الصحارى رفي الوديان يجرّون خطاهم المنهكة.

طلب القائد من آخرين أن يأتوا بصناديق الذخيرة.

ومادرى بالذي كان قد حدث سوى أن الطائرات الصديقة ماكانت تلوح في سماء الجبهة.

وعاد جندي جريحاً يجر خلفه صندوق ذخيرة: لقد احتلوا أطراف الخندق. قال الجريح.

كزّ قائد الفصيلة على ناجذيه وهدر: يا لأولاد العاهرة!

وانصبت نيران من الأمام والخلف والجانبين.

لقد احتلوا مركز الفصيلتين المنسحبتين، المجاور لمركز الذخيرة.

وأرسل آخرين إلى مستودع الذخيرة فلم يعد أحد منهم.

صاح بمن تبقى: ركّبوا حرابكم.

كان قسم من الرتل قد تجاوز الخندق مخترقاً الخط الدفاعي الثاني للالتحام مع القوى الرئيسية.

واندفعت أول موجة من جنود الأعداء نحو الخندق.

في صدره الملوث بالغبار طعن ساهم الناجي جندياً يشبه الفتى الذي ضاجع الصبيّة في الأجمة فأرداه، سمع صيحة موت تحشرجت في حلقه، ثم رآه ينكفئ نحو الأرض ويتمدد. واشتبك رفاقه مع الآخرين بالسلاح الأبيض.

ورأى ساهم رفيقه يهوي مطعوناً في صدره بحربة جندي عدو، وإذ سحب الجندي حربته تراجع إلى الخلف فتعثر بحجر وهوى، وثب ساهم الناجي كالفهد فذبحه بلا شفقة فوق الحجر، وإذ حاول أن يستدير تلقى طعنة في ظهره فسقط قرب الجندي المذبوح.

4

ـ ساهم الناجي وماذا حدث بعد ذلك؟

لم يَبُحْ أحد من الستة الباقين الذين نجوا بحرف. القائد وحده تكلم. قال الحقيقة فما صدقوه: فصيلة تقاوم لواء بمثل هذه الشراسة؟

ـ ديوث، كذاب. أين بقية اللواء؟

آه يا ساهم لو أنك متّ قبل أن ترى عذابه وهم يجرُونه فوق الأسلاك الشائكة. لو أن عينيك فُقئتا قبل أن تشهدا جسده الأسمر الصلب ينحز بالأسلاك ويتمزق. ذلك المقاتل الجاهلي الذي حمى وطناً مهزوماً بعناده العربي.

كان الآن في فراشه مستيقظاً، يحدق في الفراغ ويسمع أصوات الباعة والسيارات ونباح الكلاب. ثم هذه الساعة التي تدق.

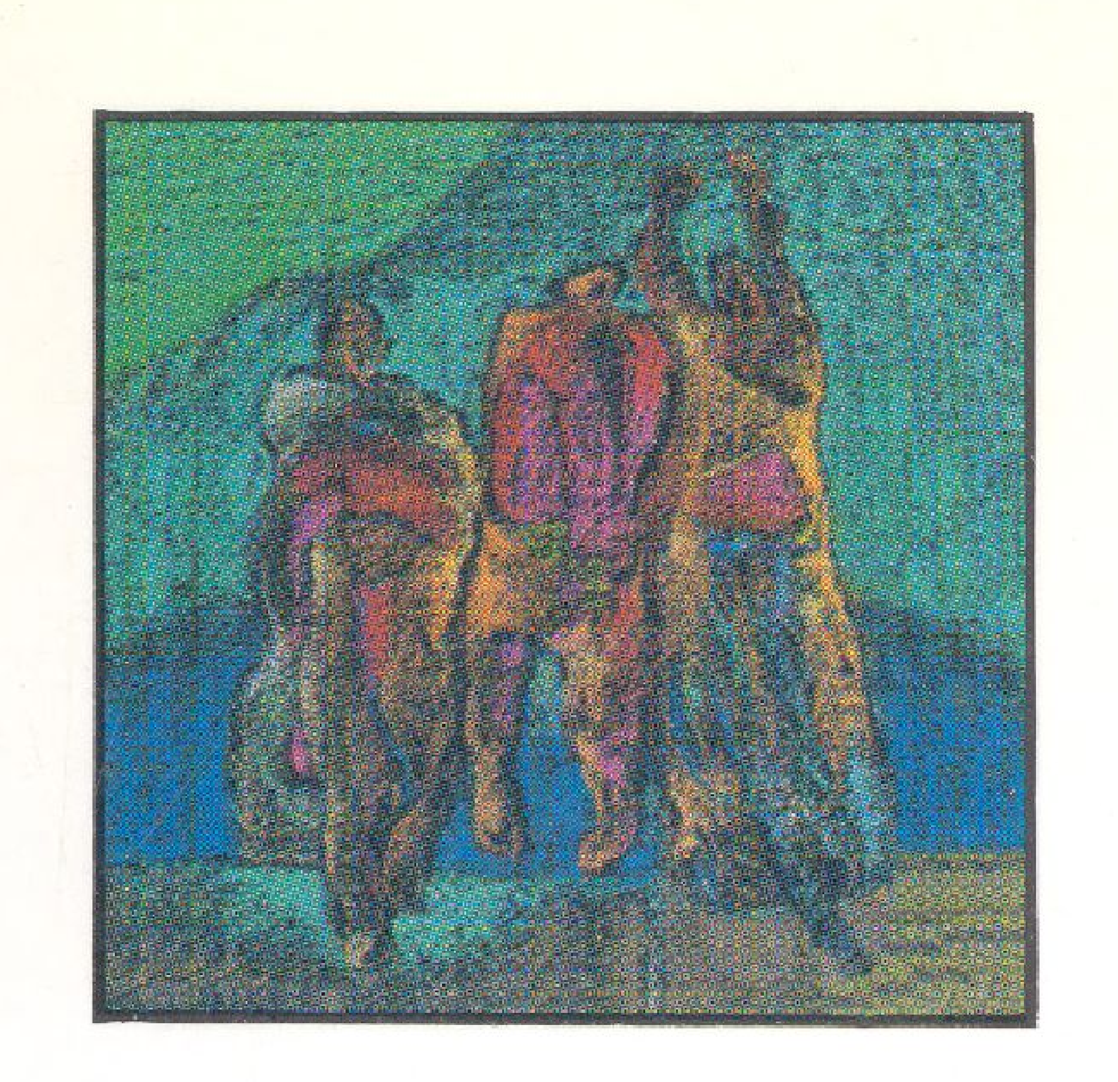
وفي الشوارع كان الناس يسيرون بهدوء نحو مراكز أعمالهم ونحو الحدائق العامة. وداخل أبنية الدولة والمؤسسات كان الموظفون يواصلون توقيع الأوراق ويحتسون الشاي الساخن ويدخنون، بينما العمال يزيدون الإنتاج، والشمس تتألق فوق المدينة.

دمشق 1968

الفهرس

صدر للمؤلف

• حكايا النورس المهاجر	الطبعة الثالثة	1998	دار ورد دمشق
• الفهد	الطبعة الثالثة	1991	دار الحصاد دمشق
• الومض	الطبعة الثالثة	1998	دار ورد دمشق
• الزمن الموحش	الطبعة الثالثة	1991	دار أمواج بيروت
• الفيضان	الطبعة الثالثة	1980	المؤسسة العربية للدراسات بيروت
• التموجات	الطبعة الثالثة	1980	المؤسسة العربية للدراسات بيروت
• الوعول	الطبعة الثانية	1990	دار الحصاد دمشق
• وليمة لأعشاب البحر	الطبعة السادسة	1998	دار ورد دمشق
• مرايا النار	الطبعة الثانية	1995	دار ورد دمشق
• غسق الآلهة	الطبعة الثانية	1995	دار ورد دمشق
• شموس الغجر	الطبعة الأولى	1997	دار ورد دمشق
• أوراق المنفى	الطبعة الأولى	1993	دار أمواج بيروت
• كبوشي	الطبعة الأولى	1978	دار ابن رشد بيروت





مدينةُ المقاهي والخمّارات واللافتات والتماثيل البرونزية، بدَتْ مهجورةً تحت هذه الشمس اللافحة، شبيه سفينة غادرها بحّارتُها بعد أن فاجأتهم العاصفة. وراء زجاج المقاهي بَدتِ الكراسي وحيدةً متقاربة، لكن رائحة الناس كانت هناك. هنا كان الزمن يمضي، والكلمات أيضاً.

منذ نعومة أظفاري، وتفتح براعم وعيي، وأنا أحبّ اللّغة العربية. لغة إيقاعية مُفعمة بالمفردات والتوليد والاشتقاق والمجاز، تشبه محيطاً لانهاية له، وعبر ذلك المحيط كان يسبح ويغوص مئةُ مليون عربي من البشر الذين يحبّون البحر والشمس والثرثرة والصلوات القدسية، ويحبّون الحرب أيضاً.

على هذه الكراسي العائمة فوق محيط اللغة، كان العالم يتشكل مفرداتٍ وجُملاً وتوليدات واشتقاقات. يُبنى وينهار. تُخاض الحروب وتعقد معاهدات السلم. يصبح الماركسي رأسمالياً، والاشتراكي بورجوازياً، واليساري أصولياً ويمينياً. وعن هذه الكراسي كان يُؤخذ أُناس إلى السجون والمنافي، ويخرج مساجين يعبرون من هنا، في طريقهم نحو كراسٍ أخرى، تستطيع أن تضحك لو طُلب إليها أن تكتب التاريخ.